محاضرات في
العقيدة الإسلامية

دكتور فاروق أحمد دسوقي
أستاذ مساعد العقيدة والثقافة الإسلامية
جامعة الملك سعود

دار الدعوة
للطبع والنشر والتوزيع
١ شارع منشا - محرم بك (الإسكندرية

محاضرات فى العقيدة الاسلامية

(١) اختـــلاف العقائد

تمهيـــــد :

(أ) معنى العقيـــدة :

العقيدة من عقد أى جــزم ومعناها ما يؤمن المعتقد فيــه انه حــق وصحيح .

ومعناها اصطلاحيا مجموعة من الافكار والمبادىء يؤمن صاحبها بأنها التفسير الحق والصحيح للكون والحياة والانسان وتنبثق جميعا من فكرة واحدة وتصلح كأساس لمنهج الحياة أو لشريعة كاملة .

(ب) أهمية العقيدة للانسان :

ويندر أو يستحيل وجود انسان عاقل على وجه الارض دون أن يكون له عقيدة يؤمن بها . حيث أن النفس الانســانية تأبى ما يمكن أن نسميه بالفراغ العقيدى .. ان حركة الانسان اليومية والاجتماعية والتاريخيــة تنطلق من منطلق محدد والى هدف محدد ولولا تحديد هذا الهــدف لمــا أصبحت حياة الانسان سهلة ممكنة . وتحديد الهدف متوقف على العقيدة ، لذلك كانت العقيدة ضرورية للنفس الانسانية ، كضرورة الهــواء والمــاء لاستمرار الحياة الجسدية .

والعقائد التى يعتنقها الناس على الارض الآن كثيرة ومختلفة ، وكل جماعة تظن أن عقيــدتها هى التفسير الحــق للكون وللحياة ، وغيرها من العقائد باطل ، والحق الذى لا مراء فيه هو أن عقيدة واحدة من بين عقائد الارض هى العقيدة الحقة الصحيحة وأن ما سواها باطل .

وكما أن الفراغ العقيدى مدمر للصحة النفسية والعقلية ، بل قد يؤدى الى الجنون والانتحار أحيانا ، فان خطر العقيدة الباطلة لا يقل عن خطر الفراغ العقيدى • ونستطيع أن نقرر باطمئنان أن العقائد المادية المنكرة لليوم الاخر فى مجتمعات الحضارة الغربية هى السبب الرئيسى وراء انتشار الامراض النفسية والعصبية ، ووصول نسبة المنتحرين الى أكثر من ثلاثين فى المائة فى كثير من بلدان أوربا •

(٢) اختلاف وتعدد العقائد والاديان فى الارض

(أ) أنواع الروابط فى التجمعات البشرية :

الامة — حسب المصطلح القرآنى — جماعة من الناس تؤمن بعقيدة واحدة ، وتعيش بمنهج حياة واحد • وبعبارة واحدة هى جماعة تدين بدين واحد • ولا يهم بعد ذلك أن تتمثل هذه الامة فى فرد واحد أو عـــدد قليل من الناس أو فى جماعة أو فى دولة أو مجمـــوعة دول وشـــعوب مختلفة • ولا يشترط أن تعيش الامة فى اقليم جغرافى واحد أو تنتسب الى جنس أو أصل عصبى أو قبلى واحد •

فالامة اذن تختلف عن القبيلة أو العشيرة ، حيث القبيلة جماعة من الناس يجمعهم انتسابهم الى جد واحد ، فهذه الاخيرة رابطة عـــرقية أو عصبية ، وكذلك تختلف الامة عن الشعب ، حيث الشـــعب هو جماعـــة من الناس يجمعهم الاقليم الجغرافى الواحد •

وبذلك يتضح لنا أن اختلاف الناس الى قبائل وشعوب أمـــر حتمى جبرى جعله الله من طبائع الناس وأحوالهم على الارض حيث أن اختلاف البيئات الجغرافية يجعل منهم شعوبا ، واختلاف الاجداد الذين ينحـــدر منهم كل جماعة يجعل منهم قبائل وعشائر (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ١٣ الحجرات) •

فالآية تتضمن تعليل اختلاف الالوان والالسنة ، واختـــلاف القبائل والصفات بين الاجناس البشرية بالشعوبية أى بالبيئة الجغـــرافية (لان

أصل الشعب فى اللغة هو انتساب جماعة من الناس الى شـــعب واحـــد والشـــعب هـــو الوادى وفى ذلك اشـــارة الى الاقليم الجغـــرافى الذى يعيشون فيه) •

وتتضمن الآية أيضا تعليل الاختلاف بين الناس فى الاصل العرقى بالقبلية •

يؤكد هذين التعليلين : أن الله عز وجل ذكر أولا أنه خلق الناس جميعا من ذكر وأنثى ، وهذا يعنى أو الاختلاف القائم بين الشـــعوب فى الالوان والصفات الجسدية واللغات انما هو بسبب اختلاف البيئات الجغـــرافية وبسبب اشتراك كل قبيلة فى خصائص وراثية مشتركة نتيجة انحدارهم من جســـد واحد •

وتثبت الآية أيضا أن هذه الاختلافات بسبب الشعوبية والقبلية أمر جبرى وليس اختياريا وهذا واضح من قوله تعـــالى (وجعلناكم شـــعوبا وقبائل) حيث الجعل يفيـــد الجبر • ومن ثم لا يحـــاسب الله الناس يوم القيامة على هذه الاحوال والاختلافات لانها ليست من فعلهم وعملهم •

أما الاممية فقد نشأت بسبب اختـــلاف الناس فى الاديان (عقـــائد وشرائع) فعلة نشأة الاممية واختلاف الناس الى أمم هى الارادة الانسانية الحرة المختارة لذلك قال عز وجل فى نهاية الآية (ان أكرمكم عند الله أتقاكم) ويستنبط من هذا أن المقياس الذى يعامل الله عز وجل به الناس يوم القيامة ويحاسبهم به ، ليس هو الخصائص الجبرية الناتجـــة عن اختـــلاف البيئة

الجغرافية والاصل القبلى ، وانما يعامل الله الناس ويحاسبهم بمقياس آخر أهم ما يميزه هو أنه اختيارى ، أى واقع باختيار الناس ويتمثل فى السلوك الخلقى الاختيارى وفى أفعـالهم الاجتماعيـة ، وفى تجمعاتهم الاختيارية القائمة على رابطة الدين والمتمثلة فى الاية . أى أن الله عز وجل يحاسب الناس يوم القيامة كأمم ، ولا يحاسبهم كشعوب وقبائل . ننتهى من ذلك الى أن الروابط فى المجتمعات البشرية نوعان :

الاول : جبرى يتمثل فى الشعوبية والقبلية .

الثانى : اختيارى ويتمثل فى الاممية .

وهاتان الرابطتان لا يخلو منهما مجتمـع من المجتمعات على ظهـر الارض فلا يوجد شعب أو قبيلة الا وله دين اختيارى ، ولا توجد أمة الا وتتمثل فى جماعة ترتبط بجانب رابطة الدين بروابط جغرافية أو عرقيه . لكن على أى حال لا بد من التفريق بين هـذين النـوعين من الروابط بين الناس .

(ب) تعليل القرآن الكريم لاختلاف الاديان ونشأة الامم :

كما خلق الله عز وجل الناس فى البدء شعبا واحدا وقبيلة واحدة ، ثم جعلهم — جبرا — شعوبا وقبائل ، فانه عز وجل خلقهم فى البدء أمة واحدة ، ولكنهم اختلفوا فى اختياراتهم ، قال تعالى (وما كان الناس الا أمة واحدة فاختلفوا ١٩ — يونس ٦ وقال تعـالى (كان النـاس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ٢١٣ — البقرة) .

ومعنى أن الناس كانوا أمة واحدة أى أن الله خلقهم على دين واحد ، لان الامة الواحدة هى الجماعة ذات الدين الواحد[1] فوحدة الامة تعنى وحدة الدين ، وتقوم وحدة الامة فى أصل البشرية متمثلة فى حقيقتين يثبتهما القرآن الكريم والسنة :

والحقيقة الاولى : وحـــدة البشرية خلقيا وطبيعيا وتتمثل فى حقيقة الفطرة وعليها تقوم وحـــدة البشرية خلقيا وطبيعيا ، أى أن الفطـــرة هى الاساس الطبيعى والخلقى لوحدة البشرية . قال تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها ... آية ١٠ الروم) .

وليس هذا هو الموضع الذى نتعرض فيـــه لحقيقة الفطرة بالتفصيل حيث سيأتى تفصيلها فى فصل لاحق باذن الله تعالى ، ولكن يكفى هنا أن نذكر ان الآية تدل على أن الله عز وجل خلق ويخلق وسيخلق كل الناس موحدين أى على عقيدة التوحيد . ومن ثم يكون مواليد البشر عندما يولدون أمـــة واحدة من حيث الاصل الخلقى والجبلى ، فالناس كلهم من حيث الاصـــل الخلقى الطبيعى أمة واحدة . أى أن الله عز وجل خلقهم أمة واحدة .

الحقيقة الثانية : هى وحدة البشر تاريخيا .

---

(١) أمة مشتقة من أم أى قصد ، فاشتراك مجموعة من الناس فى قصـــد واحد وتوجههم الى هدف واحد هو الموحد الاساسى لهم وبه يصبحون جماعـــة متماسكة ومن ثم فان الامة هى جماعة من الناس يعيشون لهدف واحد تحدده لهم عقيدة أو دين يؤمنون به .

فكما يولد الناس أمة واحدة ، ثم يختلفون بسبب الاختيار بعد بلوغ عمر التكليف والرشد • فانهم كانوا من حيث الاصل التاريخى أيضا أمـة واحدة ثم أصبحوا أمما بسبب الاختلاف الناتج عن الاختيار • فآدم عندما نزل الى الارض كان مسلما وزوجه كانت مسلمة ثم جاء أولاده موحـدين بالفطرة وبالتلقى وظلت البشرية موحدة فى عهدها الاول قرونا عدة (ورد عن ابن عباس الفترة بين آدم ونوح عشرة قرون ، كان الناس فيهم أمة واحدة على الاسلام • تفسير ابن كثير سورة البقرة آية ٢١٣) وبطول العهد بدأ البعض ينحدر نحو الشرك فأصبح الناس أمتين : أهل الشرك والضـلال ، وأهل الحق والايمان والاسلام والتوحيد ، وهم الذين آمنوا مع نوح فأراد الله عز وجل الطوفان ليعيد البشرية الى وحدة الامة متمثلة فى أمة نوح وذلك باهلاك أمة الضلال •

ولكن بطول العهد انحدر الناس بعد ذلك الى الشرك والكفر فاختلف الناس وتكونت الامم كما تكونت الشعوب والقبائل فى أرجاء المعمـورة ، وهكذا كان عهد البشرية حتى آخر الانبياء والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليهم جميعا وسلم ، حيث أصبحت البشرية بعده مختلفة الى أمة الحق وهم أتباعه المسلمون والى أمم الباطل الذين تمسكوا بعقائد الشرك والوثنية التى ورثوها عن آبائهم وأجـدادهم ومجتمعاتهم ، أو التى تلقوها عن مفكريهم وحكامهم •

فأمة الحق واحدة لا تتعدد ، لان الحق واحد لا يتعدد ، وأمم الباطل متعددون ، لان الباطل متعدد • وهم مختلفون لان الباطل مختلف ، ومن ثم

يمكن تفسير قوله تعالى (وما كان الناس الا أمة واحدة فاختلفوا — ١٩ يونس) بأنه اشارة الى خلق الناس موحدين بالفطرة ثم اختلافهم بعد بلوغ عمر التكايف والرشد والتبين والاختيار بين العقائد الكافرة المطروحة عليهم وبين الفطرة الموحدة • كما يمكن فهم قوله تعالى (كان الناس أمة واحـــدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين — ٢١٣ البقرة) اشارة الى أن الناس فى الاصل التاريخى كانوا أمة واحدة ، ثم لمـــا دب الشرك فى البشرية بدأت الرسل تترى كل رسول الى قومه • والذى يقتصر على هذا الجزء من الآية السابقة قد يفهم — خطأ — ان ارسال الرسل والانبياء الى الناس هو علة اختلافهم الى أمم ، حيث تبع البعض منهم هذا الرسول وتبع البعض منهم ذاك الرسول عليهم الصلاة والسلام ، فأصبح النـــاس على أديان سماوية متعددة يهودا ونصارى ومسلمين • وهذا خطأ لان دعوة الانبياء والرسل واحدة لا تختلف ولو اتبعها الناس حق الاتباع لاصبحوا جميعا أمة واحدة لا تختلف ولو اتبعها الناس حق الاتباع لاصبحوا جميعا أمة واحدة ، فاتباع رسول واحد اتباعا صحيحا يعنى اتباعا لكل الرســـل والانبياء فالجميـــع مسلمون جاءوا بدين الفطرة وانما جاء الاختلاف نتيجة فعل اختيارى من الناس هو تحريف الرسالات والكتب السماوية قال تعالى (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحـــق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لمـــا اختلفوا فيـــه من الحق باذنه والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم — ٢١٣ البقرة) فبين الله فى الاية انه عز وجل أرسل الانبياء والمرسلين لهداية المختلفين الى الحق واعادة الناس ليصبحوا أمة واحدة وعلى دين واحد ، ولكن الذى يحـــدث

دائما هو أن يؤمن البعض ويكفر البعض فيظلوا على اختلاف الدين ، ثم ان الذين آمنوا يختلفون بعد ذلك فى الكتاب الذى آمنوا به فى الفهم والتأويل ثم فى النص بعد ذلك نتيجة التحريف كما حدث من اليهود والنصارى فى كتابيهم التوراة والانجيل • فيظل المؤمنون المخلصون منهم على الحق ، ويضل الباقون فيصبحوا مرة ثانية أمما لا أمة واحدة •

وتعلل الاية الكريمة اختلافهم حول الكتاب بالبغى ، والبغى فعل اختيارى يسببه ايثار الدنيا واختيارها وحبها على الاخرة • وهكذا يصبح الاختيار هو الاساس والاصل فى تحول الناس عن توحيدهم فطريا وتاريخيا •

(ج) الابتلاء وتعدد الاديان واختلاف الناس :

لقد خلق الله عز وجل الدنيا والانس والجن للابتلاء وحقيقة الابتلاء تتضمن بالضرورة الحقائق التالية :

١ — ان الانسان ذو ارادة حرة مختارة ويزاول اختياره فيما كلف به ، أى بين الايمان والكفر ، بين الهدى والضلال •

٢ — النتيجة الحتمية لاختيار الانسان وتحقق ظروف وأحوال وملابسات الابتلاء الصحيح هى أن البعض يختار الحق والبعض يختار الباطل وأن البعض يفعل الشر والحرام والبعض يفعل الخير والحلال أى انه لابد من نتيجة للاختيار الصحيح — وهى أن يصبح الناس فريقين — فريق على الحق وفريق على الباطل ، أى يصبح الناس أمما • ومعنى ذلك ان الاختلاف قائم ، وسيظل قائما بين الناس وأن الاممية مستمرة الى يوم

القيامة • جلهم مختلفون عن الحق وهؤلاء هم أمم الباطل ، أما أمة الحق فهذه لم تختلف عن الحق لانها تمسكت به • قال تعالى (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم ، وتمت كلمة ربك لاملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ١٩٨–١٩٩ هود) ومعنى قوله (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) انه لم يشأ أن يكون الناس كلهم على الهدى ، كما أنه لم يشأ أن يكون الناس كلهم على الضلال، وانما شاء أن يكون الانسان مختارا بين الهدى والضلال ، مما جعل البعض يختار الهدى والبعض يختار الضلال ، فاختلفوا الى أمم ، والاختلاف أمر حتمى سيستمر لان الله شاء ذلك قال تعالى (ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك) وذلك بسبب الاختيار ، ونتيجة حتمية لتحقق الاختيار الصحيح •

٣ — يؤدى الاختلاف بالضرورة الى تصارع الفريقين ، فالصراع بين الامم كأمم هو الذى يحكم العلاقة بينهم ، وهو المحرك الاول ، والاساس الصحيح للتاريخ البشرى ، أى أن اختلاف الناس فى أديانهم هو علة الاحداث التاريخية الرئيسية ، ثم يأتى بعد ذلك اختلافهم كشعوب وقبائل كعامل مساعد — ذلك أن العامل الاساسى لاحداث التاريخ عامل اختيارى ، والعوامل الجبرية مساعدة ، وقد علمنا أن اختلاف الناس فى أديانهم أمر اختيارى بينما اختلافهم فيما سوى ذلك أمر جبرى ، وقد قال الله تعالى (•••• ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم — ١١ الرعد) والتغير النفسى فعل اختيارى يترتب عليه أحداث جبرية •

ان الذى يستعرض المجتمعات الانسانية الآن يجد اختلافا كثيرا

بينها فى الاديان والعقائد والمبادىء والملل والنحل والمذاهب كلها مختلفة عن الدين الحق أى عن الاسلام (ان الدين عند الله الاسلام — ١٩ آل عمران).

(د) أنواع العقائد فى الارض :

ورغم كثرة العقائد المطروحة أمام الاختيار الانسانى على الارض الا أنه من الممكن تصنيفها فى عدة أصناف :

١ — عقائد سماوية الاصل وتتمثل فى الاسلام والمسيحية واليهودية.

٢ — عقائد وضعية الاصل وهى المذاهب الفلسفية كالماركسية والوجودية .

٣ — عقائد تنتسب الى أديان يشك فى أن لها أصل سماوى وليس فى تاريخها ما يدل على ذلك مثل البوذية والهندوكية .

وحسب عقيدة الاسلام ونصوص القرآن الكريم تنحصر العقيدة الصحيحة فى الاديان السماوية التى نزلت من السماء بالوحى على رسل الله عز وجل ، ويعتبر سيدنا محمد ﷺ آخر الانبياء والرسل وخاتمهم ويعتبر القرآن الكريم آخر الكتب السماوية نزولا من السماء الى الارض ، ويثبت القرآن الكريم أن التوراة — كتاب اليهود — وأن الانجيل — كتاب النصارى — قد حرفا ومن ثم نسخهما الله عز وجل بالقرآن الكريم .

وبذلك ينفرد الاسلام بأنه الدين السماوى الكامل الحق المحفوظ .

(هـ) خصائص عقيدة الاسـلام :

وتمتاز عقيدة الاسلام بالتنزيه المطلق لله عز وجل الامر الذى لا نجده فى عقيدة دينية أو فلسفية سـواها • كما تمتاز بأنها مـورثة للاطمئنان فى النفس والقلب وذلك لانها موافقة تماما لفطرة الانسـان بل هى مطابقـة للفطرة • كما تمتاز بأنها كاملة حيث تفسر كل ما يحتاج الانسان الى تفسيره وتحدد للانسان هدفا لحياته مناسبا لوجوده ولمـاهيته ومرتفعا به عن حياة الحيوان ، كما تحدد له مصيره بعـد الموت وترتبط هـذا المصير باختيار الانسان وارادته وعمله الحـر •

كذلك تمتاز عقيدة الاسلام بأنها أساس صالح لمنهج قديم للحياة • بل هى العقيدة الوحيـدة التى تحقق للانسـان الخـير كل الخير ، وذلك بالشريعة الربانية السمحاء التى تقوم على عقيدة التوحيد •

فالشريعة الاسلامية أو النظم الاجتماعية الاسلامية هى منهج الحياة الذى ارتضاه الله عز وجل لخلقه من الناس اذا عاشـوا به حافظـوا على تقويمهم الاحسن وحققوا غايتهم الوجودية فى الدنيا والآخرة •

ولكن هذا المنهج لا يمكن تحقيقه الا اذا كان الناس الذين يراد تطبيقه فى واقع حياتهم موحدين ومؤمنين بل وموقنين بكل أصول الايمـان التى جاءت فى القرآن والسنة وكما جاءت فى القرآن والسنة • قال تعالى مبينا الصلة بين العقيدة والشريعة فى حياة الناس (أفحكم الجاهلية يبغون ؟• ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ؟• ـــ ٥٠ المـائدة) •

فبين أن حكم الله وشريعة الله عز وجل هى أحسن الاحكام وأفضـل الشرائع ليس لكل الناس بل لمن آمن منهم بالله وباليوم الاخر •

وأصول الايمان كما وردت فى حديث الايمان هى الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخـــر وبالقدر خـــيره وشره وهى كلها ترتكز على أساس واحد هو الايمان بالغيب قال تعالى (ألم ذلك الكتاب لا ريب فيـــه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ـــ ١ـــ٣ البقرة) •

وسنتحدث باذن الله تعالى عن هذه الاصول جميعا •

(٣) قضية الالوهية بين الاتجاهات الفكرية وبين الاسلام

نعرض هنا لتصور الالوهية فى الفكر البشرى باتجاهاته الرئيسية المختلفة أولا ، ثم نعقب بموقف الاسلام منها ، بيد أننا نود التنويه الى أن هذا الترتيب ، لا يفيد السبق التاريخى للاتجاهات الرئيسية فى الفكر البشرى على الاسلام ، حيث أن الاسلام هو الاصل تاريخيا وفطريا كما سبق بيان ذلك فى الحديث عن نشأة الامم والاديان .

كما تجدر الاشارة أيضا الى أننا سنعرض للاتجاهات المخالفة للاسلام باختصار بينما قد نتوسع فى عرض حقيقة القضية قيد البحث فى الاسلام .

ونبحث مسألة الالوهية من خلال المسائل الآتية :

الاولى : وجود الاله .

الثانية : صفات الاله .

الثالثة : مفهوم العناية الالهية .

أولا : وجود الاله :

(أ) انكار الالوهية فى الحضارة الغربية :

أما عن قضية وجود الاله ، فان تاريخ الفكر الفلسفى وتاريخ الامم والشعوب يشير الى أن وجود الاله كان دائما وفى أغلب فترات التاريخ البشرى أمرا بديهيا عند الخاصة والعامة لا يحتاج الى برهان أو دليل . ذلك حيث أثبتت الدراسات الاجتماعية والانتروبولوجية الحديثة ان كل الشعوب ، البدائى منها والمتحضر يؤمنون بوجود قوة عليا يعزون اليها صنع وفعل الاشياء والتغيرات الطبيعية .

ويدل تاريخ الفلسفة اليونانية على أن أكثر فلاسفة اليونان سلموا بوجود قوة عليا ، هى أصل الكون ومبدؤه ، بل توصل أحدهم وهو اكسانوفان الى تصور فى الالوهية يقرب من التوحيد الاسلامى ، وباستثناء الطبيعيين منهم ، لم يظهر فى تاريخ الفلسفة اليونانية الا ابيقور ، الذى أنكر وجود الله ، كما أنكر خلود النفس بعد الموت .

وظلت أوربا طيلة القرون الوسطى تؤمن بالاله ، حتى العصر الحديث حيث ظهرت فيه فكرة ما يسمونه بالالحاد بمعنى انكار وجود الاله(*) .

لقد كانت العلمانية أو انكار الغيبيات احدى آثار ردة الفعل ازاء استبداد الكنيسة وامتداد طغيانها الى العلماء ، ويمكننا أن نلخص انحدار الفكر الغربى نحو المادية والاقتراب من فكرة انكار الاله ثم التصريح بها فى الخطوات التالية :

١ — تحريف الاسلام النازل على سيدنا عيسى وتغيير الانجيل ومزج العقيدة الصحيحة بالفلسفة اليونانية والعقائد الوثنية الرومانية مما أدى الى التثليث .

٢ — طغيان الكنيسة خلال القرون الوسطى للميلاد وسيطرتها على شئون الدين والدنيا والحياة واعتناقها لفلسفة أرسطو ومنطقه ونظريات اليونان الفلكية والطبيعية وفرضها فرضا واعتبارها جزءا من العقيدة وتكفير

(*) الالحاد هو الميل لغة ، والمقصود به شرعا الالحاد فى أسماء الله وآياته بمعنى العدول عن وصفه بما يليق الى وصفه بما لا يليق ، أى التحول من التوحيد الى الشرك . ولكن غلب على معنى اللفظ أخيرا انكار الالوهية البتة .

معارضيها أو من يرى خطأها ، والحجر على حـــرية العلماء ومنعهم البحث العلمى الحر ، مما جعل أوربا فى القرن الخامس عشر الميلادى لا تزيد عن أوربا فى القرن الخامس قبل الميلاد فى ميزان التقدم العلمى شيئا يذكر •

٣ ــ اتصال الاوربيين بالحضارة الاسلامية الزاهــرة عن طــريق الاندلس والحروب الصليبية وأخذهم المنهج العلمى التجريبى ومكتشفات المسلمين فى شتى العلوم والرياضيات والانسانيات مما جعل الكنيسة تخشى على نفسها من الاسلام •

٤ ــ أدى ذلك الى قيام صراع مرير بين رجال العلم فى أوربا وبين رجال الدين والكنيسة ، انتهى بانتصار العلماء •

٥ ــ أدى انتصار العلماء الى شك الناس فى عقيدة الكنيسة ودينها ، ومع التطرف والمغالاة أدى ذلك الى انكار الغيبيات والاقتراب من المــادية البحته والكفر بالاله •

٦ ــ أحدث ذلك فراغا عقيديا فى نفــوس الاوربيين حيال مســائل العقيدة الرئيسية : الالوهية والعالم والانسان • مما جعل الناس يتطلعون الى العلم ، بصفته المنتصر فى المعركة ، ليقدم لهم البديل عن عقيدة الكنيسة•

٧ ــ ظهور نظرية النشوء والارتقاء أو نظرية التطور لصاحبها شارلس دارون ، كتفسير علمانى للحياة ولنشأة وأصل الاحياء بعامة والانســان بخــاصـــة •

٨ ــ بالرغم من عدم ثبوت نظرية دارون علميا وفكريا ، فان الصهيونية استغلتها لترسيخ العلمانية ، وللدعوة الى الكفر بالاديان والغيبيات ، هدما للاديان وتنفيذا لمخططاتهم الرامية الى هدم الدين كمقوم أساسى للامم ،

حتى يتمكنوا من السيطرة على الشعوب لتحقيق حلمهم القديم ، الذى أخبرهم الله عز وجل به فى التوراة ، بالعلو فى الارض عن طريق الافساد فيها ، وتتويج هذا الحلم بالعودة الى القدس •

وما زالت الاجهزة الفكرية الصهيونية فى جامعات العالم الغربى وغير الغربى تعمل على ترسيخ المادية وانكار الغيبيات باسم العلم كذبا وزورا•

وانبثق من الفكر العلمانى أو المادى عدة نظريات تقوم على الالحاد وترسخه فى شتى مجالات المعرفة الانسانية أهمها :

١ — نظرية التحليل النفسى لسيجموند فرويد اليهودى ، وهو مفسر النشاط الانسانى كله بالغريزة الجنسية حتى العلاقات الاسرية ونشأة الدين وفكرة الالوهية •

٢ — النظرية الوضعية لاوجست كونت الذى أسس علم الاجتماع على أساس الحادى منكر للاله والغيبيات وتابعه أيضا دور كايم وهما من اليهود •

٣ — الماركسية لكارل ماركس ، وهو يؤسسها على أساس انكار الالوهية وتفسير كل شىء فى الكون بالمادة والنشاط الانسانى بالاقتصاد• وهو يهودى أيضا ، ويعتبر أعظم من خدم اليهود فى هذا العصر •

٤ — الوجودية وفلاسفتها كثيرون ، وقد نشأت كرد فعل للماركسية بغرض تأكيد الذات الانسانية الحرة ومنهم المؤمنون بالاله ومنهم الملاحدة وأبرزهم جان بول سارتر الذى ظهرت العلاقة الوثيقة بينه وبين الصهيونية

ويعتبر القاسم المشترك بين هذه المذاهب جميعا هو قضية الالوهية ، بحيث يمكن القول انه يجمعهم اتجاه فكرى واحد • هذا القاسم المشترك

هو زعم هذه المذاهب جميعا بأن فكرة الالوهية أمر مكتسب وليس فطريا فهم ينكرون وجود الاله ، ونظرا لاجماع الشعوب والامم على الايمان بالاله ، فقد حاول أصحاب هذه المذاهب تعليل هذا الايمان محاولين — كل حسب مذهبه — تفسير الايمان بالاله بأنه أمر طارىء على النفس البشرية ومكتسب وليس فطريا •

لقد صرح فرويد بأن الدين من وضع الناس وفكرة الالوهية من صنعهم وعلل ذلك بعقدة أوديب وهى نتيجة لكبت الذكور رغبتهم الجنسية فى أمهم ، وقد حدث أن اشتدت هذه الرغبة بأبناء أسرة من أسر الانسانية الاولى ، ابان انسلاخها من الحيوانية ، فقتلوا أباهم وزنوا بأمهم ، ثم ندموا على فعلتهم ، فحاولوا التكفير عن خطيئتهم فبدأوا يمجدون ذكرى الوالد المقتول • ومع مرور الاجيال تحولت الافعال التى يفعلونها لتمجيد ذكرى الوالد الى طقوس وعبادات وتطورت فكرة الوالد المقتول المجد الى فكرة الالوهية •

وبالمثل يعلل أوجست كونت ودور كايم نشأة الدين وفكرة الالوهية ، فقال الاول : ان ذلك هو الاسلوب المناسب لطفولة البشرية ، حيث يعلل الطفل الظواهر بالوهم • فالدين وفكرة الالوهية من صنع الوهم البشرى فى مرحلة الطفولة البشرية ثم تطورت البشرية فى مرحلة شبابها الى النهج الفلسفى وهى الان — حسب زعمه — فى مرحلة النضج والكهولة ولذلك فهو يأخذ بالاسلوب والنهج العلمانى (الوضعى) أما دور كايم فيعلل نشأة الدين وفكرة الالوهية بخلق المجتمع لها • لان المجتمع عنده هو خالق كل شىء وفاعل كل شىء فى حياة الانسان ويرجع ذلك الى الطوطمية ، ويشترك معه كثير من الاجتماعيين فى أن خوف الانسان من الظواهر الطبيعية هو

الذى دفعه الى التوهم بأن ثمة قوة عليا تسيطر عليه فعبدها ، والنتيجة عند دور كايم ومدرسته ان الاله من صنع الانسان ، وبالذات من صنع طبيعته الاجتماعية •

اما ماركس فقد قال ان فكــرة الالوهية من ابتــداع وخلق المــلاك والاسياد والاقطاعيين بالتعاون مع رجــال الدين • وصنعوا هذه الافكــار واصطنعوها كذبا لتسكين الفقراء والعبيد والعمالوالفلاحين حتى لا يثوروا ويطالبوا بحقوقهم المسلوبة وهــذا معنى قوله (الدين افيــون الشعوب) فأسس مذهبه على قوله ــ لا اله والحياة مادة •

وجاءت الوجودية لتوجه الفكر لمعالجة قضية الانسان ، باعتباره القوة العليا فى الكون ، ولتبحث له عن طريق لاثبات الوجــود ، وتأكيد الــذات فى مواجهة العالم والغير • فالانسان سيد الكون وصانع نفسه وعليه ان يحدد ذااته بمنأىعن أىقيود اجتماعية أو دينية مفروضة عليه من الاخرين •

وهكذا ترددت فى الفكر المعاصر أصوات منكرى الالوهية ، الامر الذى لم يكن له وجود يذكر فى تاريخ الفكر الانسانى خلال العصور الطويلة •

(٤) الايمـــان بالله عـــز وجـــل

(أ) الفطرة أساس الايمان بالله واحدا لا شريك له :

قال تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون آية ١٠ — الروم) فطرة الشىء هى طبيعته فى أول خلقه ، ومن ثم ففطرة الانسان هى طبيعته الاولى التى يولد بها وقبل أن تتبدل وتتغير .

فالآية تثبت أن الله عز وجل يخلق الانسان موحـــدا بمقتضى الطبيعة والخلقة والجبلة ، أى أن طبيعته الاولى أو فطرته — لو سلمت من التحريف والتبديل فانها تدفعه جبرا الى اتخاذ اله له . لان الله خلقه عبدا ، ليس هذا فقط ، بل ان الفطرة السوية تدله وتهديه — دون علم مكتسب ودون ارشاد من أحد من الخلق الى حقيقة التوحيد الاسلامية النازلة من السماء بالوحى على سيدنا محمد ﷺ وعلى كل الانبياء والرسل عليهم الصلاة والســـلام من قبـــله .

وبناء عليه فان التوحيد الذى نزل من السماء عن طريق الوحى له مثيل فى نفس كل انسان لم تتبدل فطرته ، ولا فرق بينهما ، اللهم الا أن معرفة الله عز وجل عن طريق الفطرة وحدها اجمالية كلية ، ومعرفة الوحى تفصيلية بيانية اجبارية .

وقد ورد من الاحاديث الصحيحة ما يوضح هذا المعنى ويقرره ففى الحديث القدسى الذى رواه رسول الله ﷺ عن ربه عز وجل قال (يقـــول

الله تعالى : انى خلقت عبادى حنفاء كلهم فاجتالتهم الشياطين وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا — رواه مسلم فى صحيحه) •

وقد بين الله عز وجل لنا فى هذا الحديث أن الذى يغير الفطرة الموحدة هم الشياطين ، ولكن الشياطين ليسوا من الجن فقط ، بل هناك شياطين الانس ، ومن ثم فدواعى تغيين الفطرة كثيرة منها : البيئة والمجتمع والثقافة السائدة فيه (نظام التربية وأجهزة الاعلام) وعلى رأس هؤلاء جميعا الاسرة حيث يورث الآباء والولدان عقيدتهم للابناء •

ولكن العامل الرئيسى والحاسم فى تغيير الفطرة وتحريفها عن الايمان بالله الواحد الذى لا شريك له الى الكفر به أو الشرك أو الالحاد هو ارادة صاحبها • وما هذه العوامل الاخرى الا موعزات ودواعى •

ومن هنا يجب علينا أن نفهم قول رسول الله ﷺ : (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه — رواه الشيخان) بمعنى انهما يدعوانه الى دينهما وليس يجبرانه على الشرك والكفر • وقد يرد على الذهن هذا السؤال : وهو أن الله تعالى يقول (لا تبديل لخلق الله) بينما يثبت كل من الحديث القدسى والحديث الشريف التغيير فى الفطرة ، فكيف يكون ذلك ؟ وما هو المقصود بنفى التبديل فى خلق الله فى الآية ؟ ولكن الرد على هذا السؤال يكمن فى أن الله قال (لا تبديل لخلق الله) ولم يقل لا تبديل لفطرة الله ، وفرق بين المقصود بالفطرة والمقصود بالخلق ، ذلك أن المراد بخلق الله هو مخلوقاته من البشر فى كل زمان ومكان ، لذلك قال (فطرة الله التى فطر الناس عليها) ولم يقل (فطر الله التى فطر الانسان عليها) أو (فطر آدم عليها) مما يدل على أن كل انسان فرد يخلقه الله ويفطره على

التوحيد • والمعنى أن جميع المواليد من خلق الله منذ آدم حتى آخر من يولد من أبنائه فى الدنيا ، سيولدون على التوحيد • ولن يؤثر توالى أجيال الكفر والشرك على البشرية فى هذه الفطرة ، فما يفعله الاباء والاجداد فى أنفسهم من تبديل فطرهم لا يتعدى تأثيره الى أبنائهم • حيث أن هؤلاء الابناء يولدون مسلمين ولا يؤثر كفر آبائهم فى فطرهم •

أما التغيير الارادى الذى يحدثه الانسان فى فطرته من التوحيد الى الشرك ، وذلك بعد بلوغه سن الرشد والتكليف ، فهو جائز وحادث ، وهذا هو الذى يتحدث عنه كل من الحديث القدسى والحديث النبوى •

(ب) الفطرة ومصير المشرك الذى لم تبلغه رسالة الاسلام :

والسؤال الرئيسى فى موضوعنا هو : ما هو مصير المشرك الذى لم تبلغه رسالة الاسلام ؟ حيث أنه معلوم من الواقع الذى لا يمكن انكاره أنه يوجد الكثير من الناس الذين يولدون ويعيشون فى مجتمعات كافرة ووثنية ثم يموتون دون أن تبلغهم رسالة الاسلام ، كأهل المجتمعات البدائية فى ارجاء القارات وكالقبائل الوثنية فى أواسط افريقية أو استراليا ، أو مثل الهنود الحمر قبل اكتشاف أمريكا ، أو أى مكان فى العالم لا يعرف أهله العربية ولم تبلغهم رسالة الاسلام على بيان ووضوح وصدق • ان أمثال هؤلاء اذا ماتوا على عقيدة قومهم التى لم يجدوا أمامهم غيرها ، ماذا يكون مصيرهم يوم القيامة ؟

من المعلوم أن مصير المشرك الذى بلغته رسالة الاسلام هو الخلود فى النار • بيد أننا عندما نفترض أن أحدا من الناس لم تبلغه رسالة الاسلام فان أول ما يرد على أذهاننا لتحديد مصيره هو أن الله عز وجل عادل ولا يظلم

أحدا ، ومن ثم فهو لن يعذب انسانا على الشرك ، لانه لم تصله الرسالة السماوية الهادية له الى التوحيد وكثير من الناس يرى هذا الرأى ويستدلون على ذلك بقوله تعالى (••• وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا — آية ١٥ — الاسراء) مما يجعل البعض يفهم من هذه الاية أن الفترة التى لم يكن فيها رسل ولا كتب سماوية صحيحة لن يعذبهم الله عز وجل وسيدخلون الجنة حتى ولو ماتوا على الشرك •

وقال رأى آخر من بات على الشرك سواء وصلته رسالة السماء أو لم تصله فانه يخلد فى النار ، ودليل أصحاب هذا الرأى قول الله عز وجل (ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء — آية ٤٨ سورة النساء) وقالوا ان حكم الاية عام مطلق وليس يوجد ما يدل على تقييد هذا الحكم أو تخصيصه أو استثناء من لم تصله الرسالة منه •

فما هو الرأى الصواب فى هذه القضية وما هو الرأى الخطأ ؟ ان الحق فى هذه القضية واضح ، وأساسه هو حقيقة الفطرة فالذى يموت على الشرك فى أى زمان ومكان ومهما كانت بيئته ، فانه يخلد فى النار لا محالة بمقتضى وعيد الله للمشركين حيث أوعد انه لا يغفر الشرك ويغفر ما دونه من الذنوب والاثام وحتى الكبائر لمن يشاء •

الاشهاد والفطرة :

ولعل الذى يؤكد ذلك هو العملية التى غرس الله عز وجل بها الفطرة الموحدة فى النفس الانسانية ، ونعنى بها عملية الاشهاد ، ومع ايماننا بأن الله عز وجل قادر على كل شىء ، يفعل ما يشاء كيف يشاء وقد خلق الملائكة

موحدين وكان — اذا شاء الله — يمكن أن يخلق الانسان موحدا بكلمة كن الالهية ، ولكنه — لحكمة جليلة — شاء أن يغرس الفطرة الموحدة فى النفس الانسانية بنفسه ، وشاء أن يشهد الانسان على استيعابه وتعلمه وتقبله لهذه الحقيقة حقيقة التوحيد — وبمعنى آخر نقول شاء الله — لحكمة جليلة — أن يعلم الانسان التوحيد بنفسه عز وجه ، وذلك قبل خلق الانسان فى هذه الحياة الدنيا أى فى الموتة الاولى .

والحكمة الجليلة هى ابطال حجة المشرك بعدم وصول الرسالة اليه ، اذا لم تكن الرسالة وصلته ، لذلك أشهد الله كل الناس بلا استثناء واحدا منهم قائلا لهم : ألست بربكم ، فرددنا عليه جميعا قائلين بلى ، أى نعم نشهد أنك ربنا الواحد ولا رب لنا غيرك ان النفى هنا منصب على نفى الربوبية فهو اثبات الربوبية له وحده وبذلك شهد كل منا على نفسه أمام الله بأنه وعى وادرك هذه الحقيقة الكونية العظى التى تقوم عليها كل الحقائق الكونية الاخرى وهى أنه لا اله الا الله ولا رب سواه ، وقد أخبرنا بذلك فى كتابه الكريم بقوله تعالى (واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا انما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون — آية ١٧٢—١٧٣ سورة الاعراف) .

وجودية غيبية قبل مجيئنا الى هذه الحياة الدنيا وأشهدنا على أنفسنا بأنه الرب الواحد ، فتشهدنا وبمقتضى هذا صار كل منا مسلما موحدا ، ويستتبع ذلك أن الانسان ليس بحاجة الى معلم أو رسول ، أو نبى لكى يدرك أن له ربا واحدا ، وليس معنى ذلك أن الرسالات السماوية ليست ضرورية للبشر بل هى كذلك ، ولكن من وجوه أخرى غير قضية التوحيد .

الحكمة من الاشهاد والفطرة :

وقد أظهر الله عز وجل فى آية الاشهاد السابقة الحكمة الجليلة التى من أجلها علم الانسان التوحيد بنفسه وأشهده على ذلك ، وهى أنه سيحاول المشركون الاحتجاج على الله يوم القيامة والاعتذار له بالجهل أو الغفلة أو بأنه عز وجل خلقهم فى مجتمعات ولاباء مشركين كافرين ملاحدة أو وثنيين فزودهم بالتوحيد الفطرى قبل الحياة الدنيا ، حتى لا يكون لهم حجة على الله بعد ذلك ، فقال تعالى (ان تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا) أى عن التوحيد (غافلين) أى جاهلين غير مدركين ولا عالمين • ومعنى أن تقولوا حتى لا تقولوا • فذلك ابطال للحجة الاولى التى سيحتجون بها يوم القيامة، اما ابطال الحجة الثانية فيقوله تعالى ، أو تقولوا انما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ، أفتهلكنا بما فعل المبطلون) وهذا هو احتجاج المشركين بالبيئة ودين الاباء ، وهو مرفوض أيضا لان الله عز وجل علمهم التوحيد قبل وجودهم فى هذه الحياة فلا عذر لهم •

مهمة الانبياء والرسل :

ولكن قد يقول قائل فما معنى قوله تعالى اذن (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا — ١٥ — الاسراء) وللاجابة على هذا السؤال نقول ان مهمة الرسل والانبياء ذات جانبين متباينين وان كان كل منهما مكملا للاخر • الجانب الاول هو جانب العقيدة أى التوحيد والثانى : خاص بالشريعة • ومهمة الانبياء بالنسبة للتوحيد تذكيرية أكثر منها تعليمية لان الأنسان قد تعلم التوحيد من ربه عز وجل قبل خلقه فان مهمة الانبياء بالنسبة للتوحيد ليست تعليمهم شيئا جديدا لم يكونوا يعرفونه من قبل وانما هى اعادتهم الى فطرتهم السوية ، وتذكيرهم بحقيقة مركوزه فى نفوسهم ومعلومة لهم بأنه

لا ند له ولا شريك لله • وقد سجل القرآن الكريم على كل الناس معرفتهم وعلمهم بأنه لا شريك ولا ند لله عز وجل فقال تعالى (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذى جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون — آية ٢١ ، ٢٢ سورة البقرة) فاذا لاحظنا أن نداء الله عز وجل فى هذه الاية هو للناس كلهم مؤمنهم وكافرهم ثم هو يثبت عليهم جميعا علمهم بأنه ليس لله أندادا ، تبين لنا أن الناس كلهم يعلمون أن الله واحد ، ومن ثم تكون مهمة الانبياء والرسل تذكيرية بهذه الحقيقة أكثر منها تعليمية ، ولذلك ورد فى القرآن المكى الذى تولى قضية التوحيد كقضية رئيسية أمر الله عز وجل لرسوله بأن يذكر (فذكر انما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر — ٢١،٢٢ الغاشية) وقوله تعالى (ان هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا — ٢٩ — الانسان) •

أما بالنسبة للجانب الثانى من مهمة الرسل فهو الخاص بالشريعة وهذا الجانب تعليمى بحيث أن البشر كلهم لو اجتمعوا وتعاونوا لمعرفة كيفية العبادات ومعرفة النظم والقوانين والشرائع التى تحقق لهم العدل والحق بينهم لعجزوا عجزا تاما •

ومن هنا نقول ان الرسالات السماوية ضرورية لهداية الانسان ، كما أن معرفة الفطرة لا تغنى الانسان عن معارف تفصيلية بالنسبة لقضية التوحيد كمعرفة أسماء الله عز وجل وصفاته ومعرفة مصير الانسان والهدف من وجوده والحكمة من خلقه وكيفية التوحيد الخالص لله عز وجل — نقصد الكيفية العملية التى تتحقق بالسلوك العملى الفردى منه والاجتماعى ، حيث أن الشريعة ليست سوي الحياة وفق مقتضيات التوحيد الاسلامي • ونظرا

لعجز الناس عن معرفة العبادات والشرائع وحدهم فان الله عز وجل وعـد بأن يغفر الذنوب ما دون الشرك لمن يشاء • وينطبق هذا الوعد على كل من لم تصله رسالة الاسلام ومات على التوحيد فان أمله كبير فى مغفـرة الله عز وجل بل ان الله عز وجل وعد بألا يعذب من لم تصله الرسالة على العبادات والشرائع فى قوله (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) فهذه الآية خاصة بالجانب الثانى من مهمة الرسل وهى الشرائـع والعبادات دون الجـانب الاول الخاص بالتوحيد لان هذا الجانب الثانى لا يمكن للانسـان ادراكه وحده ، لابد فيه من رسول يعلمه الشرائع والعبادات ، أما التوحيد فهـو قادر وحده بفطرته على النجاة من الشرك ، ومن ثم أوعد الله المشرك بعدم المغفرة ووعد الموحد الذى مات على توحيده الفطرى بأنه لن يعـذبه على تركه العبادات لانه لا يستطيع وحده معرفتها •

ومن ثم فالمشرك الذى لم تبلغه رسالة الاسـلام يخلد فى النار ليس على تركه العبادات والشرائع فهذه لا يحاسب عليها وانما على تبديله فطرته ومخالفته للحنيفة التى خلقه الله عليها وانتقاله من عقيدة التوحيد الفطرية الى الشرك •

أما الذى يحاسب على التوحيد والشرائع معا فهو المسلم الذى بلغته رسالة الاسلام فهؤلاء هم الذين يقام لهم يوم القيامة وزنا •

ولقد وجد على مر الازمان والعصور وفى مختلف المجتمعات الحنفاء الذين ماتوا على توحيدهم الفطرى وقد عرف العرب من هؤلاء عـديد من الناس أمثال زيد بن عمر بن نفيل وقس بن ساعده وغيرهم وهؤلاء يدخلون الجنة ولا يحاسبون على شريعة أو عبادة •

أولا ـ موقف القـــرآن الكريم من انكار الالوهية

المتدبر لآيات القرآن الكريم يدرك أن الله عز وجـــل قـــد أولى قضية التوحيد العناية الاولى والاهتمام الاكبر الذى لم تنله قضية عقيـــدية أو تشريعية أخرى فالقرآن يناهض عقائد الجاهليين على اختـــلافها وينقضها واحدة واحدة ويناقشها تفصيلا واجمالا ، واستخدم فى هذا المجال المناهج الفكرية المختلفة عقلية ونفسية وحسية •

بينما نجد الحال مختلفا بالنسبة لانكار الالوهية وللمصرحين بانكارها وذلك بالرغم من وجودهم ــ وان قلوا ــ عبر فترات التاريخ •

ولا يكاد يجد القارىء فى تاريخ العقائد وتاريخ الحضارات انتشـــار مذاهب وعقائد تصرح بانكار ووجود الاله على مستويات شعبية كهذا الذى حدث فى العصر الحديث سواء فى الغرب الرأسمالى أو فى الشرق الشيوعى•

ولمـــا كان من مبادىء التوحيد الاسلامى الايمان بأن الله عز وجل بكل شىء عليم ، يعلم ما حدث وما يحدث وما سيحدث فى تاريخ البشرية ومنها تردى بعض الناس الى عقيدة انكار الالوهية •

ولمـــا كان من المسلمات الاسلامية الاولى أن القرآن الكريم هو رسالة الله عز وجل الاخيرة الى البشرية وأنها بيان وهدى للناس لاخـــراجهم من ظلمات الشرك والكفر والالحـــاد الى نور الاســـلام • ولمـــا كان المنكرون للالوهية أشد كفرا وبعدا عن عقيدة الاسلام من المشركين •

لمـــا كان هذا كله ، فان المرء ليجد نفسه بازاء سؤال ملح وضرورى لمعرفة الحكمة التى من أجلها لم تنل قضية وجود الله عز وجل العناية التى نالتها قضية التوحيد ؟

للاجابة على هذا السؤال يجب علينا ابتداء أن نذكر بالمسلمات والحقائق الاسلامية الآتية :

١ ــ القرآن الكريم كلام الله عز وجل •

٢ ــ القرآن الكريم يوافق بعضه بعضا ولا يخالف بعضه بعضا •

٣ ــ القرآن الكريم يوافق الواقع الكونى والانسانى •

٤ ــ الايمان بالله أمر فطرى فى النفس وطبيعة أولية نشأنها فى النفس شأن البديهات العقلية •

اذا تذكرنا هذه المسلمات والحقائق الاسلامية يمكننا أن ندرك الحكمة التى من أجلها ترك الله عز وجل الرد على منكرى الالوهية ومناهضتهم ولم يعطه ابطال دعواهم فى القرآن عناية كالتى أعطاها لابطال دعاوى المشركين •

ذلك ان ترك هذه القضية وعدم الرد عليها موافق لكل هذه الاسس الايمانية الاسلامية وبالعكس فان مناهضتها والرد عليها صراحة وذكر الادلة العقلية وغير العقلية لاثبات وجود الله عز وجل معناه مخالفة هذه المسلمات والحقائق الاسلامية آنفة الذكر •

وبيان ذلك أن اثبات وجود الله يتعارض مع المسلمة الاولى القائلة بأن القرآن كلام الله عز وجل اذ أنه ليس من المعقول أن يدخل المتكلم مع المخاطب فى حوار وجدل لاثبات وجوده وهو الذى يتكلم معه •

فلو عرض القرآن الكريم أدلة عقلية لاثبات وجود الله عز وجل لكان هذا متعارضا مع مسلمة ان الله عز وجل هو المتكلم وأن القرآن كلامه

وما شاء الله أن يكون فى القرآن أدنى اختلاف • وهكذا لم يأت فى القــرآن الكريم اثبات لوجود الله عز وجل توافقا مع المسلمة الاولى الثانية •

كماأنه — اذا نظر القرآن الكريم الى ظاهرة الالحاد باعتبارها ظاهرة تستحق العناية وتستوجب المناهضة فانه يكون قد تعارض مع حقيقة الفطرة التى تعتبر الايمان بالله أمرا أوليا فى النفس لا يحتاج الى دليل بل يقــوم عليها الدليل • فالقول بفطرية الايمان بالله يعنى القول بأولية الايمــان به والقول بأولية الايمان به يعنى الاستغناء عن دليل لوجوده فالرياضى الذى يثبت قضية باعتبارها بديهية عقلية ثم يحاول الاستدلال على صحتها متناقض مع نفسه لان الاوليات والبديهات غنية عن الدليل •

ولقد ظن بعض مفكرى الاسلام أن القرآن الكريم يدلل على وجود الله عز وجل بأدلة عقلية ويناقش مسألة وجود الله عز وجل صراحة باعتبار القرآن كتاب عقيدة فى المقام الاول • وباعتبار هذه القضية هى المســألة الاولى والاساسية فى مباحث الفلاسفة فى الالهيات •

ولكن الذى أراه أن القرآن الكريم لم يعرض لهذه القضية ولم يناهض الملاحدة صراحة وان كان قد لمح لها باعتبارها ظاهرة واقعة فى حياة البشر •

وأستطيع أن أقرر مطمئنا — بعد مراجعة وتدبر لآيات القرآن الكريم أنه لا يوجد مناقشة صريحة كما لا يوجد دليل عقلى صريح يقدمه القرآن الكريم على وجود الله عز وجل وان كان للقرآن مناهجه وأساليبه الخاصة لمناهضة الملاحدة ولكن ليس ليثبت لهم وجود الله عز وجل هو المتكلم سبحانه بالقرآن بل ليثبت لهم بديهية وجوده عز وجل وليثبت لهم أصالة ايمانهم

الفطرى به واحدا لا شريك له • وليثبت لهم عبوديهتم وعبودية كل شىء لله• وليثبت لهم أن القرآن كلام ليس كمثله كلام لانه كلام من ليس كمثله شىء سبحانه وتعالى •

كذلك يمكننا أن نستمد من القرآن حقائق كونية وانسانية تستنبط منها عن أدلة عقلية على وجود الاله • لكن ليس فى القرآن دليلا عقليا صريحا لاثبات وجوده ويمكن تعليل هذا للاسباب الآتية :

١ — المتكلم بالقرآن هو الله عز وجل ، والمتكلم لا يثبت وجوده ، لان وجوده مسلم به ابتداء •

٢ — الايمان بالله عز وجل أمر فطرى فى النفس فهو أولى ومناقشة قضية وجود الله عز وجل وجلب الادلة لاثبات وجوده نزول بالقضية من مستوى البديهات والاوليات التى لا تحتاج الى دليل ويحتاج اليها الدليل الى مستوى القضايا المشكوك فيها الاحتمالية •

٣ — الاستدلال العقلى كما هو عند المناطقة والرياضيين هو انتقال العقل من معلوم مسلم به الى مجهول مشكوك فيه ويحتاج الى الدليل لاثباته •

ولذلك لم يأت دليل من هذا القبيل على وجود الله عز وجل لان الله عز وجل ليس مجهولا فى أى موضع من مواضع القرآن ، كما أنه ليس فيما سواه عز وجل ما يمكن أن نعتبره معلوما بعلم أولى للانسان بحيث يمكن أن نستدل به على الله عز وجل وهو الذى فطره على الايمان به واحدا لا شريك له •

أما ما يظنه البعض أدلة على وجود الاله فى القـــرآن فهى أدلة على واحد أثبت وقـــدرته وخالقيته لـــكل شىء وعبـــودية كل شىء له • وليس استدلالا عقليا أو غير عقلى على وجوده •

أما مناهج القرآن فتدور كلها حول محور واحد وهو اثبات العبودية للانسان ، واثبات عجزه أمام آيات الله عز وجل الكلامية وآياته الكونيـــة فى المناهـــج الآتية :

١ــ التعجيز بالقرآن أو القرآن كله دليل على وجود الله عز وجل •

٢ ــ اثبات العبودية للانســـان •

٣ ــ أدلة عقلية مستنبطة من حقيقة العبودية ، ومناقشـــة ما يعتبره البعض دليلا عقليا على وجود الله •

٤ ــ المنهج النفسى التجريبى •

٥ ــ جبرية العبودية واختيار المعبود •

وسنعرض لكل منهج فيما يلى :

القرآن كله دليل على وجود الله عز وجل :

ان الدليل القطعى والمفحم على وجود الله عز وجل هو القرآن كله ، انه كلامه ، فاذا ثبت أنه ليس كلاما لمخلوق وليس فى وسع مخلوق أن يأتى بمثله فهو اذن كلام الخالق ، وهذا هو الدليل القاطع والحجة البالغة فى هذه القضية ليس لانشاء ايمان فى النفس لم يكن مـــوجودا ولكن لاظهار هـــذا الايمان الذى غرسه الله بالفطرة •

فالقرآن كلام الله سبحانه وتعالى الى البشر ، وهو صفته فهل يجوز أن يبحث بين كلام المتحدث عن دليل يثبت وجوده ؟ ان الصـــفة دالة على الموصوف بذاتها كما أن الموصوف برهان على وجود الصفة كذلك فاذا قرأنا قوله تعالى (أفرأيتم ما تمنون ، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟) فهل يمكن أن نطلب من هذه الايات دليلا على وجوده وهو سبحانه المتحدث بها؟

ان كلمات الله سبحانه التى بين دفتى كتابه الكريم صفته ، فليس ثمة كلام مثل كلامه كما أنه (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير — الشورى — ١١) والدليل على أنه كلام الله ، أنه ليس كمثله كلام يمكن أن يوجد من المتكلمين من دونه وما زال تعجيز قائله سبحانه للبشرية ، بل وللجن معهم أيضا منذ نزوله قائما حتى الآن • فتحداهم أن يأتوا بمثله فقال (أم يقولون تقوله ، بل لا يؤمنون • فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين •• الطور — ٣٣ — ٣٤) وقال تعالى (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا — الاسراء — ٨٨) • فلما لم يأتوا بمثله ، تحداهم بأن يأتوا بعشر سور منه (أم يقولون افتراه ؟ قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين — هود ١٣) ولكنهم يعجزون عن عشر سور أيضـــا فتحداهم بأن يأتوا بسورة بهذا الاعلان العام الى البشر والجن منذ نزول القرآن حتى الآن (وان كنتم فى ريبب مما نزلنا على عبدنا • فاتوا بســـورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين فان لم تفعلوا ، ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين — البقرة — ٢٣—٢٤) •

ذلك هو كلام الله الذى يحق به الحق (أم يقولون افترى على الله كذبا، فان يشأ الله يختم على قلبك ، ويمحو الله الباطل ، ويحق الحقبكلماته • انه

عليم بذات الصدور ــ الشورى ــ ٢٤) ان القرآن كله دليل على الله سبحانه لانه ليس كمثله كلام ومن ثم فلابد أن يكون قائله من ليس كمثله شىء •

ان الفطرة حقيقة مــؤكدة كائنة بين ضـــلوعنا ، هادية لنا الى الخير والحق • وهى بذاتها دليلنا الى الله •

وكلام الله تعالى ، المعجز حقيقة مؤكدة ، مسجل ومكتوب ومحفــوظ بين دفتى الصحف ومقروء ألفاظا وأصواتا على ألسنة القــراء من البشر ، فهو الصفة الالهية الكريمة التى أودعها الله فى قلوب المؤمنين وصـــدورهم وهو بذاته معجز لانه ليس كمثله كلام ، وذلك دليل على أن قائله ليس كمثله شىء سبحانه •

والكون المخلوق بما فيه من دقة وعظمة وضخامة واتقان ونظام واتساق وتوازن يشكل مع حقيقة الفطرة والكلام المعجز حقيقة هامة وخطيرة فوق كل برهان ودليل بل يقوم عليها كل برهان ودليل وهى : أنه لا اله الا الله •

الرد على منكرى الاله باثبات العبودية :

لو تعمقنا قليلا فى موقف الذين يصرحون بانكار الالوهية لوجدنا انهم من الناحية العملية السلوكية ومن ناحية نتائج عقيدتهم الباطــلة ، أقــرب ما يكونون الى رفض عبوديتهم لله تعالى ، وخضوعهم له أكثر من رفضـــهم لالوهيته •

ولذلك وجدنا القرآن ينتقض جوهر وحقيقة كفرهم المتمثل فى رفض عبوديتهم لله عز وجل باثبات انهم عبيد بمقتضى الخلقة ، فعبوديتهم أمــر جبرى فى حياتهم وان كان اختيارهم للمعبود أمرا اختياريا واقعيا بارادتهم

ومن ثم يكون جوهر اعتقاد المخالفين للتوحيد لا يتمثل فى انكار الالوهية ، حتى بالنسبة للمصرحين بانكارها بقدر ما هو متمثل فى الاشراك بالله عز وجل فالعبودية لكل ما فى العالم المحيط بالانسان المشاهد منه والغائب أمر ثابت ، بمقتضى خضوع كل شىء لجرم صارمة لا يستطيع أى جرم سماوى أو أى حس فى الارض نبات أو حيوان أو جماد صغر أو كبر ان يخرج عن طبيعته أو يتخلص من ضروراتها •

ثم اننا نلاحظ أن المخلوقات قد سخرت بعضها لبعض بمشيئة الله وحسب سنته ونواميسه الكونية والطبيعية حتى يمكن ترتيبها ترتيبا تصاعديا بحيث يكون الادنى مسخرا للاعلى حتى الانسان فوق قمة العالم المشاهد

وقد سخر الله له الحيوان ، وسخر له النبات ، وسخر لهذه الاحياء جميعا العناصر الغازية والسائلة والصلبة بما فى ذلك الشمس والقمر والنجوم ونواميس الفلك وسنن الحياة •

وبالرغم من أن الانسان ليس مسخرا لغيره من المخلوقات التى تشاركه الحياة والوجود فى الارض مما قد يوحى بأنه الاعلى فيها الا أن هذا لم يحرره مطلقا ولم يمنع من أن يكون خاضعا كغيره من المخلوقات للناموس بحكم حياته ووجوده ، ولسنن يخضع لها خضوعا لا يستطيع الانفكاك عنها حتى أنه يعيش فى ظل طبائع يخجل من مزاولتها أمام غيره من أمثاله بالرغم من أنه ليس مسؤلا عنها • فهو يشعر أن هذه الخصائص الحيوية صفات نقص من شأنها أن تعيب مما يجعله يمارس هذه الطبائع ويلبى حاجاته بعيدا عن أعين الاخرين ورقابتهم •

فالمأكل والمشرب والنوم وقضاء الحاجة والمعاشرة الزوجية وعورات

الانسان الدالة على هذه النشاطات الحيوية كلها أمور فى حيـــاة الانســـان يخجل منها ويخفيها عن أعين الاخرين بالرغم من أنه ليس مسئولا عنها • ومعنى هذا أنه يتمنى أن يتخلص منها مما يدل على أنها صفات نقص وليست من صفات الكمال •

وهذا بعكس ممارسات العقل والذكاء والعـــلم والادب والانتـــاج الحضارى والفاعلية الانسانية فى ميـــدان العـــلوم والاختراع والتقـــدم العمرانى كل هذه الخصائص والاعمال من صفات الكمال التى يتحلى بهـــا الانسان ويفتخر بها ويسعده أن يظهر بها أمام الاخرين •

ومع هذا فان الانسان لا يستطيع أن يتخلص من الخصائص الاولى ، فيغير من كيفيـــة تكوين الجنين أو يغير من طبيعته الحيوية المتمثـــلة فى خصائص بشرية مخجلة أشرنا اليها آنفـــا • كما أنه لا يســـتطيع أن يقصر وجوده على خصائص الانسانية العليا كالسمع والبصر والتعقل والعـــلم والفاعلية الحضارية •

كذلك يحب الانسان الحياة ويكره الموت ولكنه لا يستطيع مد حياته الى الامد الذى يريد ويشتهى كما لا يستطيع أن يؤجل الموت أو يمنعه أو يتخلص منه •

ويحب الانسان الصحة ويكره المرض ، ولكنه لا يستطيع أن يتخلص من المرض تماما ، الا بمقدار علم محدود ينمو من الزمن يساعد على التداوى من المرض ولكنه لا يضمن له الشفاء ، كما أنه لا يستطيع أن يحقق لنفسه الصحة والقوة المطلقة التى يتمناها •

ويكره الانسان الشيب والشيخوخة ويتمنى لو ظل شابا ، ولكن هيهات هذا وغيره الكثير يثبت أمرا واحدا فى حياة الانسان هو الخضوع •

والخضوع الجبرى هو العبودية التى يكون فيها الانسان عبدا لغيره فعبودية الانسان لغيره أمر ثابت لا مراء فيه ، ومن يرفضها ويحارى فيها فما عليه — لكى يثبت زعمه — الا أن يتخلص من خصائصه البشرية المخجلة من ناحية وأن يضاعف من خصائص الانسانية العليا من ناحية أخرى وعليه أيضا أن يتخلص تماما من المرض والشيخوخة والموت مستبقيا لنفسه الصحة والشباب والحياة كما يحب ويشتهى فان لم يفعل ولن يفعل فليقهر اذن بالعبودية لخالقه جل وعلا •

فحقيقة العبودية الثابتة بهذا التحدى تستتبع التسليم بحقيقة الالوهية والعلم بها •

ومن ثم كان الايمان بالله واحدا لا شريك ولا ند له من الامور التى يعلمها البشر علما ضروريا نابعا من حقيقة وجودهم البشرى •

وأسلوب القرآن الكريم فى مخاطبة الكافرين أو المصرحين بانكار الاله أو المدعين الالوهية أو الربوبية انما هو التحدى والتعجيز بكشف حقيقة طبيعتهم الخاضعة العابدة مما ينفى عنهم الالوهية أو الربوبية ويثبت عبوديتهم لغيرهم • ومن ثم لا يكون لتصريحهم بانكار الاله أى معنى •

ويمكن توضيح وتفعيل معالم هذا المنهج القرآنى فى أربعة مواضع :

(أ) التعبير واثبات الخضوع الكونى •

(ب) اثبات الخضوع فى بدء الخلق •

(جـ) اثبات الخضوع فى الاستمرار فى الخلق .

(د) اثبات الخضوع فى المــــوت .

وسنتحدث عن كل معلم من معالم هذا المنهج فيما يلى :

(أ) الخضوع الكونى :

نأخذ مثالا لهذا التعجيز بمجادلة ابراهيم عليـــه الســـلام لأحـــد الرافضين الاعتراف بالعبودية والزاعمين الربوبية قال تعالى (ألم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه ان آتاه الله الملك . اذ قال ابراهيم ربى الذى يحى ويميت قال : أنا أحى وأميت ، قال ابراهيم : فان الله يأتى بالشمس مـــن المشرق فات بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القـــوم الظالمين ـــ ٨ـــ٢٥ البقرة) وهكذا حاول ابراهيم عليه الســـلام أن يثبت للـــكافر خضوعه وعبوديته بالاشارة الى أنه خاضع فى موته وحياته له . فلما وجد أنه بدأ يمارى ويخدع بادعاء الاحياء والاماتة ترك ابراهيم دليل الاحياء والاماتة جانبا ما دام مناظره الملحد قد استعمل التأويل فى معنى الاحياء والاماتة تمويها ومخاتلة للاخرين . ولم يحاول ابراهيم أن يبطل هذا التأويل لعلمه أن هذا استدراج من المناظر له لقضايا فرعية تميع المناقشة وتنأى بها عن الهدف المطلوب . ولذلك انتقل ابراهيم عليه السلام الى تعجيزه عندما طلب منه اخراج الشمس من المغرب بدلا من المشرق فبهت الذى كفر وثبتت عبوديته أمام نفسه وأمام الاخرين وانتفت بذلك الوهيته المزعومة .

(ب) كل دليل خضوع الانسان وفقره الى غيره فى الخلق أى فى الايجاد من العدم :

الموجود اما أن يكون مستقلا فى وجوده مستغنيا عن غيره بذاته ، واما

أن يكون الموجود معتمدا فى وجوده واستمرار وجوده على غيره فان كان معتمدا فى وجوده على غيره صار بالضرورة خاضعا لهـذا الغـير وثبتت عبوديته له وفى إثبات عبوديته لغيره اثبات لالوهية هذا الغير له • وحيث أنه يستحيل عقلا أن يكون الموجود فقيرا ومحتاجا فى وجـوده الى غيره ومستغنيا عن غيره فى نفس الوقت فانه يستحيل عقلا — نتيجة لذلك — أن يكون الموجود عبدا والها فى نفس الوقت •

ومن ثم تنتهى الى أن الغنى بذاته عن غيره هـو الخالق وان الفقير والخاضع فى وجوده لغيره هو المخلوق •

ونتيجة منطقية لذلك أيضا أنه يستحيل أن يكون الكائن خالقا ومخلوقا فى آن واحد ، فلم يبق الا أن يكون فى الكون خالقا واحدا وما سواه مخلوق

يقول الله عز وجل مثبتا خالقيته للانسان ومخلوقيه الانسان بقدرته تعالى (نحن خلقناكم فلولا تصدقون • افرأيتم ما تمنون ؟ أأنتم تخلقـونه أم نحن الخالقون ؟ ٥٧—٥٩ الواقعة) ففى هذه الايات اشارة الى استحالة أن يكون المخلوق خالقا فبالسؤال الاسـتنكارى (أأنتم تخلقـونه أم نحن الخالقون ؟) تحدى من الله للانسان معلوم النتيجة سـلفا فهو اسـتفهام تقريرى أيضا ، وهو أيضاح على سبيل البيان ولا يخلو من سخرية حيث يطلب من الانسان ما يعجز عنه وهو خلق المنى وخلق الانسان •

فلا يملك عاقل — ازاء هذا الاستفهام التقريرى الا أن يقر بأنه مخلوق عاجز عن الخلق ، وبالتالى يكون فى هذا اثبات لوجود خالق له من غير بنى الانسان ومن غير المخلوقات جميعا •

(جـ) حاجة الانسان الى خالقه فى استمرار حياته :

ونجد كذلك أن تحدى القرآن قائم بالنسبة لاستمرار الحيـاة حيث لا يستطيع أى مخلوق أن يرزق نفسه بما يفيد استمرار حياته كما يريد • قال تعالى مبينا خلقه لكل ما سماه بما فى ذلك رزق الانسان الذى لا تستمر حياته الا به بأمر الله تعالى (أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعـون أم نحن الزارعون ٦٤ ــ الواقعة) •

وهنا يشعر الانسان بالعجز والفقر الحقيقيين لان الزارع يملك الاخذ بالاسباب المؤدية للانبات ولكنه لا يملك انماء وانبات زراعـه وهـذا مالا يرفضه حتى الكافرون من الناس ومن ثم قال الله تعالى (لو تشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون • انا لمغرمون • بل نحن محرومون ٦٥ــ٦٧ الواقعة) أى بعد النفقة على الحرث والرى لا يملك الانسان ــ اذا شاء الله لزراعته البوار ، وهو كثيرا ما يحدث رغم الاخذ بكل أسباب الزراعة ــ نقول لا يملك الانسان الا أن يتعجب ويقر بحرمانه من الرزق •

ومن هذا بيان على أن غذاء الانسان الذى تستمر به حياته ليس بيديه، فهو هنا خاضع وعبد لله عز وجل •

بل الامر يتعدى حدود الغذاء الى المـاء الذى هو أشد ضرورا لحياة الانسان من الغذاء والذى هو أيضا أحد أسباب رزق الله له بالغـذاء لان عدم المـاء يعنى عدم الغـذاء والحياة على الارض قاطبة ، قال تعـالى (أفرأيتم المـاء الذى تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ؟ ــ ١٦٩ لواقعة) •

لا يستطيع ملحد منكر للالوهية أن يزعم ــ ان كان به بقية من عقل ــ

انه أو أى انسان غيره أو كل الناس مجتمعين هم الذين خلقــوا الارض والمحيطات والشمس وسنوا السنن التى بمقتضاها تتبخر ميــاه المحيطات والبحار ثم تأتى الرياح فتحمله لينزل مطــرا على أرجاء اليابســة يغيث الانسان والاحياء ويمدهم بالغذاء والكساء لا يستطيع أحد أن يزعم أنه يفعل ذلك ، ونحن نشاهد الحياة تموت فى بعض البلاد التى يصيبها الجفاف ولا يستطيع الانسان أن يفعل شيئا أو ينزل الغيث •

ومن ثم بين لنا الله عز وجل عجز الانسان وفقــره الى الله فى الرزق الذى تستمر به حياته فقال تعالى (لو تشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون ٧٠ الواقعة) أى أن الله عز وجل لو شاء لغير السنن التى تجعل المــاء يتبخر صاعدا الى أعلى مصطحبا معه الملح فلا ينزل المطر عذبا بل ينزل مالحا أو انه عز وجل لو شاء لخلق الارض وغلافها الجوى وعناصرها بكيفيات وسنن مغايرة بحيث لا يكون فيها تبخر ولا سحاب ولا رياح ولا مطر فلا يجــد الانسان أمامه الا مياه المحيطات المالحة •

وحاجة الانسان لاستمرار حياته الى النار ضرر أيضــا قال تعــالى (أفريتم النار التى تورون ؟ أأنتم أنشأتم شجــرتها أم نحن المنشئون ؟ نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمتقين فسبح باسم ربك العظيم — ٧١—٧٤ الواقعة) •

وبذلك يثبت حاجة الانسان الى الله عز وجل لاستمرار حياته وهــذا دليل ثان للخضوع والعبودية اللذين عليها وجوده •

(*) يزعم البعض أن الانسان قادر على انزال المطر صناعيا ولكن فرق بين زرذات من المطر تكلف كثيرا وبين الغيث الذى يغيث الناس . وهذا مايعجز عنه الناس ولو اجتمعوا له .

(د) جبرية الموت كدليل لاثبات العبودية والخضوع لله عز وجل :

ان أرجى ما يرجوه الانسان ويتمناه هو البقاء ، وأخوف ما يخـافه ويكرهه هو الموت لا ينكر هذا منكر للالوهية تبجح بكفره ، ومع هـذا فانه لا يستطيع أن يحقق لنفسه البقاء ولا يستطيع أن يدرأ عن نفسه الموت ولا هو بقادر على أن يستبقى حياته ــ اذا جاءه المـوت ــ لحظة واحـدة قال تعالى (نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ــ ٦٠ الواقعة) أى وما نحن بعاجزين عن مد حياتكم الى الابد ان أردنا ذلك ولكن موتكم أمر مقـدر ومراد لنا فلا راد له ولا مناص منه •

ذلك لان الملحد يعلل موته بأنه أمر طبيـعى فى الحياة حيث لابد أن يعقبها الموت كما يعقب الموت الحياة • ومن ثم أثبت الله عز وجل انه عندما قدر الموت لم يكن مقلدا لغيره فى هذه السنة ولم يكن مـلزما بهـا مجبرا عليها وانما شاء الله الموت للاحياء فى الارض وقدره لحكمه ويثبت الله عز وجل خضوع الانسان وعبوديته ويطالب من يزعم من الملاحدة أنه بخلاف ذلك بمحاولة التحرر من خضوعه فى مماته ، فيدرأ عن نفسه الموت الذى فرضه الله عليه ، فيثبت بذلك عبودية الانسان فى مماته كما أثبت خضوعه وعبوديته فى خلقه ورزقه •

بيد أن التحدى فى دليل الموت واضح وصريح قال تعالى (فـلولا اذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ونحن أقرب اليه منكم ولكن لا تبصرون فلولا ان كنتم غير مدينين ترجعونها ان كنتم صادقين ــ ٨٣ــ٨٧ الواقعة) أى هلا رددتم نفس المحتضر الى سائر جسده لتستمر حياته ولتدرءوا عنه الموت اذا كنتم صادقين فى زعمكم انكم غير خاضعين لغيركم وانكم لستم عبيدا لهذا الغير • فاذا عجزتم عن ذلك فهذا دليل الخضـوع والعبودية •
(••• قل فادرءوا عن أنفسكم الموت ان كنتم صادقين ــ ١٦٨ آل عمران)•

وهكذا يثبت القرآن الكريم خضوع الانسان فى خلقه ثم فى استمرار حياته ثم فى موته وهذا الخضوع ، وهذه الدينونة أو العبودية الكاملة فى الانسان تفيد عبودية لغيره ولا يختلف فى ذلك مؤمن بالاله أو منكر لوجوده •

وذلك لان الملحد لا ينكر الجبرية التى يحيا فى ظلها الانسان الا أنه ينسبها تارة للطبيعة وتارة للمادة وتارة للوجود وتارة للتطور •• وهكذا •

فالانسان الذى فيه اتفاق بين المؤمنين والكافرين هو خضوع الانسان لجبرية وعبوديةلغيره • أما الاختلاف بينهما فهو أن المؤمن الموحد يؤمن فكريا بأن هذا الخضوع وهذه العبودية لله رب العالمين خالقه وخالق كل شىء وهو يحاول سلوكيا وتحمليا أن يجعلها لله وحده بينما الكافر أو الملحد عندما ينسب الجبرية التى تلقه فى بدء وجوده وفى استمرار حياته وفى موته الى الطبيعة أو المادة وحتمية التطور أو غيرها انما يقر بالخضوع والعبودية أيضا للطبيعة أو المادة أو غيرهما فهو بذلك يتخذ له الها من دون الله رب العالمين • وذلك لان الله خلقه عبدا فلابد أن يتخذ له الها ومن لم يجعل الله الهه اتخذ آلهة من دونه ليست الا أسماء وأوهاما وأوثانا •

ان القرآن الكريم يثبت حقيقة مؤكدة فى طبائع الاشياء والاحياء هى حقيقة الخضوع لله والعبودية له كما يثبت حقيقة مؤكدة بالنسبة لطبيعة الانسان وهى خضوعه وعبوديته لغيره ومن ثم يكون انكار الالوهية بلا معنى وكلام أجوف لان الكائن اذا كان خاضعا لغيره فله اله هو هذا الذى يخضع له ، وهذا الخضوع أو هذه العبودية لا ينكرها الملحد بل يقربها •• ومن ثم فهو يقر بالوهية ما فى الكون كل ما هنالك ان المسلم يقر لله عز وجل بالالوهية بينما الملحد ينسبها لشىء من دون الله • فهو اذن مشرك وليس منكرا لوجود الاله ، وهذا وجه من وجوه بيان عناية القرآن الكريم بقضية التوحيد

والشرك لان الملحد فى حقيقته مشرك حيث ينسب الالوهية لغير الله ، وليس ينكرها مطلقا كما يزعم صراحة ، فهو ينكرها صراحة ويقر بها ضمنا عندما ينسب مصدر الجبرية لغير الله • وسيأتى تفضيل ذلك بعد •

(ز) عقلية قائمة على حقيقة عبودية الكون والانسان لاثبات الالوهية :

لا يظن ظان أن الادلة الثلاثة السابقة هى أدلة لاثبات وجــود الاله يقدمها الله لنا فى القرآن الكريم ، لان هذا الامر بديهية كما قلنــا كما أنه لا يتوافق مع كون القرآن الكريم كلام الله عز وجل ، لانه ليس من المعقول والمنطقى أن يقدم المتكلم براهين لاثبات وجوده •

كذلك برهان اثبات الوجود ينتقل بالمخاطب من موجود معلوم ثابت الوجود بلا دليل الى مجهول محتاج الى اثبات وجــوده الى دليل والذى يثبت لنا بوضوح أن المتحدث فى هذه الادلة الثلاثة السابقة بل المتحدى هو الله عز وجل فوجوده معلوم مسبقا مسلما به انما النتيجة التى ترمى اليها هذه الادلة الثلاثة كما قلنا هى اثبات عبودية الانسان •

فهو منهج تحدى للمنكر يقــوم على أساس اثبات العجــز والفقر والخضوع والعبودية لكل الموجودات المشاهدة المحســوسة ممــا يثبت عبوديتها وخضــوعها لغيره • مما يعنى كون هــذا الغير بالضرورة ولكن يمكننا استنباط بعض الادلة العقلية لاثبات الالوهية بناء على ثبوت العبودية للانسان •

الدليل الاول :

العبودية والخضوع علاقة بين كائن أدنى وكائن أعلى •

الكائنات بعامة والانسان بخاصة خاضعون لنواميس جبرية •

ـ الكائنات كلها بما فيها الانســـان عبيد ٠

ـ للكون والكائنات كائن أعلى هو الاله ٠

ـ الاله موجـــود ٠

الدليل الثانى :

ويمكن استعراض هذا البرهان بصيغة برهان القسمة كما يلى :

الموجود اما اله واما عبد والعبودية خضوع وفقر واحتياج الى الغير الالوهيةاستعلاء واستغناء ذاتى عن الغير والانسان وكل الكائنات فى الدنيا خاضعون وفقراء الى الغير ٠

ـ الانســـان عبـــد ٠

ـ الانســـان له اله ٠

ـ الاله مـــوجـــود ٠

الدليل الثالث :

كما يمكن استخدام طريقة الخلف فى البرهنة على هذه النتيجة (التى هى فى القرآن مقدمة وبديهية) كالاتى :

اذا أنكرنا وجـــود الاله (فرضـــا)

يكون الانسان باعتباره أرقى الموجودات فى الارض غير خاضع لغيره وغير محتاج لغيره ومعتمد على ذاته فى وجوده وفى استمرار وجوده وفى بقـــائه ٠

ولكن الانسان فقير الى غيره محتاج اليه فى بدء وجوده وفى استمرار وجوده وعاجز عن دره المـــوت عن نفسه ٠

ـ الفرض الاول المنكر لوجود اله باطل لان ما ترتب عليه باطل وما ترتب عليه باطل فهو باطل •

ـ الاله موجود

هذه أدلة عقلية على وجود الاله مستنبطة من أدلة القرآن الكريم على عبودية الانسان وخضوعه لغيره بالضرورة •

الدليل العقلى المستنبط من القرآن الكريم على خالقية الله :

قال تعالى (أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون ؟ أم خلقوا السماوات والارض بل لا يوقنون ؟•• الطور ٣٥ـ٣٦) •

وهذا الاستدلال يقوم على القضايا الآتية :

١ ـ لكل معلول علة أى أن لكل مخلوق خالق •

٢ ـ العلة غير المعلول أى أنه من المحال أن يكون الشىء هو علة ومعلولا فى نفس الوقت ولنفس الحدث وبالنسبة لخلق الانسان والسماوات والارض ، وبناء على هاتين القضيتين تكون الاحتمالات الممكنة عقلا كالآتى :

١ ـ اما أن يكون الانسان قد خلق من غير شىء أى أنه يكون معلولا بدون علة وهذا محال لتعارضه مع القضية الاولى •

٢ ـ واما أن يكون الانسان هو خالق ذاته وهذا محال أيضا لتعارضه مع القضية الثانية •

٣ ـ الاحتمال الثالث والاخير وهو أن يكون للانسان خالق غيره مخالف له أى ليس مخلوقا مثله هو الله عز وجل وهذا الاحتمال هو الممكن لتوافقة مع القضية الاولى والثانية •

أما بالنسبة لخلق السماوات والارض • فهناك أربعة احتمالات :

١ — أن تكون السماوات والارض قد خلقن من غير شيء وهو محال لتعارضه مع القضية الاولى :

٢ — أن تكون السماوات والارض قد خلقن أنفسهن وهو محال لتعارضه مع القضيةال ثانية •

٣ — أن تكون السماوات والارض من خلق الانسان وهذا محال عقلا لان الانسان مخلوق والمخلوق لا يخلق أى أن المعلول لا يكون علة ومعلولا ومعرفة الانسان لحدود استطاعته ولعجزه عندما يطلب منه ذلك أى أن هذا الاحتمال باطل بالتجربة •

٤ — لم يبق الا أن تكون السماوات والارض من خاق خالق مخالف لها ولما فيها من محدثات ومخلوقات فهو ليس مخلوقا وهو خالق هو الله عز وجل •

ولكن هل تتضمن الايتان تعريف الانسان بالله الخالق ؟ الواقع ان الايتين تتضمنان الدليل العقلى على بطلان انكار وجود الالوهية أما الدليل على وجود الاله فهو مفترض ومقدم على هاتين الايتين فى قوله تعالى (فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين ، أم خاقوا من غير شيء أم هم الخالقون ؟ أم خلقوا السماوات والارض بل لا يوقنون ؟) وهكذا نجد أن هذه الايات — وان كانت تتضمن مقومات الدايل العقلى الذى يعتمد عليه الفلاسفة والمتكلمون فى اثبات الالوهية الا أنه ليس دليلا على وجود الاله بمعنى الانتقال من معلوم يقينى الى مجهول مشكوك فيه • وذلك لان الاية السابقة فيها تحدى من الله عز وجل المتكلم بالقرآن الكريم فى أن يأتوا بمثله

وهذا هو الدليل على أن القرآن كلام الله • ثم تأتى بعد ذلك آيات الحوار العقلى كما عرضناها آنفا وكما تتضمن الدليل العقلى •

وهذا يؤكد ما سبق أن قلناه من أن القرآن لا يعرض دليلا على وجود الله عز وجل وان تضمنت آياته الاسس العقلية والمقـــومات المنطقية ليس لاثبات وجود الله عز وجل ولكن لاثبات خالقيته لكل شىء وللناس ومن ثم عبودية كل شىء والناس له • وهذا هو الذى يرمى اليه هذا الدليل •

المنهج النفسى التجريبى فى القرآن الكريم للرد على منكرى الالوهية:

يعتمد ملحدو هذا العصر فى تشكيكهم فى وجود الله بانكارهم لعـــالم الغيب أصلا بحجة فقد الدليل المـــادى على وجوده • ذلك لانهم لا يؤمنون الا بالمـــادة المحسوسة كما لا يعتقدون الا بالمناهـــج العقلية التجـــريبية كوسائل بشرية للبحث ومن ثم يعمد القرآن الى وسيلة تناسب ما يؤمنون به لا ليثبت وجود الاله — فتلك مسلمة — ولكن لـــكى يثبت لهم وجـــود فطرتهم المؤمنة بالله والموحدة به • فاذا أثبت لهم وجود هـــذا الايمان فى أعماقهم ، فقد أثبت بذلك أيضا محنتهم لانفسهم ولغيرهم •

والمنهج المناسب الذى يقدمه لهم القرآن ليكشف حقيقتهم به ، هـــو المنهج النفسى التجريبى • حيث يجرى عليهم تجربة نفسية تتلخص فى أن نأخذ ببعض الملاحدة فى قارب صغير فى بحر لجى حيث يوشك القارب أن يغرق بهم بشرط أن تكون التجربة دون علم هؤلاء الملاحدة الذين يركبون القارب حتى يتوهموا أنهم فى خطر حقيقى • ثم علينا بعد ذلك أن نســـجل مشاهدتنا وملاحظتنا عن سلوكهم حيال هذا المنطق على حياتهم وسنرى هل سيتوجهون الى الارض أم الى السماء ؟ وهل سيدعون البحر أن ينقذهم أم

سيدعون رب البحر وخالقه • ثم علينا أن نسألهم بعد ذلك من أين لهم هذا الايمان ، دون مناظرة أو مجادلة أو اقناع ؟

ولقد أخبرنا القرآن الكريم منذ نزوله أنهم اذا حدث لهم هذا ، ضل من يدعون الا الله ، ذلك أنهم سوف لا يؤمنون بوجود الله فقط ، بل سيؤمنون به واحدا لا فاعل ولا قادر سواه • فاذا كان القرآن قد أخبرنا بالنتائج النفسية لهذه التجربة فاننا نتحدى بذلك ملاحدة هذا العصر أن يقيموا هذه التجربة بشرط أن يتحلوا بما يجب أن يتحلى به الباحث من حياد ورغبة فى الوصول الى الحق والحقيقة ، والامانة العلمية التى تحتم عليهم تسجيل النتائج وتبليغها كاملة كما هى • ثم عليهم أن يبلغوننا بالنتيجة التى لا يمكن الا أن تطابق كلام الله تعالى (فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون — ٦٥ العنكبوت) ومعنى دعوا الله مخلصين له الدين (أى مفردين الله بالعبودية والخضوع) • فهم يوحدون الله فى الفلك خوفا من الغرق ويشركون بالله فى البر فهم يعرفون أن الله واحد اذن •

وقال تعالى (هو الذى يسيركم فى البر والبحر اذا كنتم فى الفلك وجرين بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين • فلما أنجاهم اذا هم يبغون فى الارض بغير الحق يا أيها الناس انما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم الينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعلمون ٢٢—٢٣ يونس) •

وقال تعالى : (وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده

بغيا وعدوا حتى اذا أدركه الغرق قال آمنت انه لا اله الا الذى آمنت به بنوا اسرائيل وانا من المسلمين الان وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ٨٩ — ٩٠ — ٩١ يونس) •

ومن كل هذه الامثلة يتبين لنا أن الناس يفسدون ويكفرون فى البر وفى ساعة اليسر وازاء طموحات الدنيا ، ولكنهم يوحـــدون الله ويخاصـــون له الخضوع والذل فى ساعة الشدة وتحت تهديد الموت • ولنا أن نسأل من أين يأتيهم الايمان بالله واحدا لا شريك ؟ ومن أين أتى لفرعون الذى أنكر أن يكون لقومه الها غيره الايمان باله بنى اسرائيل والاسلام له ؟ من أين ؟ ان لم يكن من ذات نفسه التى فطرها الله على الايمان به واحدا لا شريك له •

الملاحدة ينكرون وجود الاله صراحة ويقرون بوجوده ضمنا :

بناء على ما تقدم يمكننا القول انه لا يوجد بين الناس منكرون لوجود الاله ، وانما يوجد مشركون كافرون بنعمة الله عز وجـــل ، لان الانســـان خاضع وعبد لغيره باقرار الجميع المؤمن والكافر والملحد •

والملحد يؤمن بالمـــادة انه ينكر الاله بالصفات الالهية التى نزلت فى الكتب السماوية ولكنه مضطر برغم أنفه الى اثبات كائن ما ينسب له الجبرية التى يخضع لها ويفسر خضوع الكائنات كلها فيها فهـــو يثبت الالوهيـــة بصفات أخرى مغايرة وان رفض أن يعتبرها ألوهية فهو اذن ليس ملحدا بمعنى انكار وجود الاله كما يزعم بقدر ما هو مشرك وكافر لتحريف الصفات الالهية •

ومن ثم نقول مؤكدين انه لا يوجد على الارض بنى آدم من يعيش دون أن يتخذ له الها يعبده • وهذه الحقيقة هى التى تفسر لنا اعطاء القرآن

الكريم عنايته الكبرى لقضية الشرك بينما لم يعر قضية انكار الالوهية اهتماما يذكر •

فان قال قائل أن كثيرا من الناس الان كالماركسيين والوجوديين والعلمانيين وغيرهم ينكرون وجود الاله صراحة ؟ قلنا ردا على ذلك :

لقد خلق الله عز وجل الانسان عبدا ، فهو عبد سواء رضى أم أبى وليس له خيار فى ذلك ، فهو مجبر على أن يكون عبدا ، ولكنه مخير فى أن يجعل عبوديته لله أو يجعلها لغير الله • فاذا جعل الانسان عبوديته لله وحده فقد تحرر واستعلى على كل شىء سوى الانسان فى الارض وأصبح سيدا عليها • فتحرير الانسان يكمن فى تحقيق عبوديته لله وحده •

فاذا لم يجعل الانسان عبوديته لله ، سقط فى عبوديته لسواه ، ذلك لان الانسان محكوم بمقتضى الخلقة والجبلة بأن يكون عبدا فاذا حاد باختياره عن عبادة الله وحده فليس معنى ذلك أنه سيتحرر من العبودية تماما وانما يؤدى به هذا الى أن يصبح عبدا لغير الله تعالى : عبدا للشيطان للطاغوت للمبدأ ، للحاكم ، للمال ، للشهوة ، الهوى • قال تعالى : (أرأيت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا — ٤٣ الفرقان) وقال تعالى : (أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم — ٢٣ الجاشية) •

وعلى ذلك فالماركسى والوجودى والعلمانى واتباع أى مذهب منكر لوجود الاله لهم آلهتهم ومعبوداتهم يخضعون لها ويدينون بها •

ومن ثم لا يوجد على الارض من يعيش بلا اله يخضع له ، كما لايوجد أحد يعيش بلا دين يخضع بمقتضاه لاله يعبده •

وبناء على ما تقدم تكون قضية انكار وجود الاله قضية بلا معنى وبلا وجود بمعنى أنها مفتعلة • وهذا يفسر لنا لماذا لم يعط القرآن أهمية لقضية انكار الاله بينما أعطى الاهتمام الكافى لقضية الشرك وذلك لان الملاحدة مشركون عمليا ونظريا لانهم يتخذون آلهة غير الله وان كانوا لا يصرحون ولا يعترفون بذلك[1] • ومن هنا وصف الله عز وجل فى القرآن الكريم الكافر بالشرك ووصف المشرك بالكفر •

الذى ينكر وجود الله يتخذ له الها آخر لا بالضرورة فهو مشرك والمشرك الذى يعبد مع الله الها آخر كافر بالله الواحد الذى لا ند ولا شريك له •

ومن ثم فالاله موجود عند الملاحدة رغم تصريحهم بغير ذلك ،ولكنه يتمثل عندهم فى منهاج حياتهم وسلوكهم العملى حيث هم يخضعون بالضرورة لغيرهم ويدينون لهذا الغير بالطاعة ، لكن هذا الذى يدينون له بالطاعة ليس هو الله الاله الحق خالقهم وخالق كل شىء بل هو الطاغوت والهوى ، وهذا اقرار ضمنى يشهد عليهم بالكذب حيث هم يعيشون كعبيد ويزعمون غير ذلك الا أنهم ليسوا عبيدا لله عز وجل •

ان العقائد الالحاديةعندما تنكر الالهصراحة فانها تعود وتقر بوجوده ضمنا وذلك حين تحاول وضع تفسير للكون والحياة والوجود والعدم •

فماركس مثلا حين يؤسس عقيدته على انكار الالوهية ، فانه يعطى

---

(١) وذلك لان الملحد الذى يرفض عبادة الله لانه لا يراه يتخذ له الها آخر من الماديات التى يراها وبرهان هذا أننا اذا حللنا نفسيته وتعمقنا فى عقيدته وجدناه يخضع ويطيع معبود أرضيا متمثلا فى الهوى أو الحاكم أو الفيلسوفوهكذا

المـادة صفة الازلية وهى أولى خصائص الالوهية ، وحين يفسر نظام الكون والعالم فانه يعزى الى المادة وحركتها المتطورة كل أسباب النظام والفاعلية فى الكون •

فهو اذن يصف المادة بالقدرة والفاعلية ، حتى لا يستطيع ماركس أن ينكر أن المادة التى هى مبدأ هذا الكون الباهر العظيم الدقيق المنظم لابد أن تكون عظيمة باهرة قادرة مهيمنة ومصيرة لكل شىء حتى ولو كانت حركتها حتمية وآلية • وفاعلة وحية أيضا ما دامت هى مصدر الحياة أيضا لأن تولد الحياة عنده من صراع الاضداد لا ينفى أن المادة هى مصدر الحياة لان الاضداد مادة • والحياة عنده مادة • واذا كان الانسان العالم العاقل المريد السميع البصير هو أيضا من نتاج حركة المادة الحتمية المتطورة ، فان هذه الخصائص جميعا أولى أن تكون فى المادة الازلية • فماذا يكون هذا الشىء الازلى المتطور العالم العاقل السميع البصير الحى الذى يسميه ماركس المادة ؟ أليس هو الاله ؟ ان ماركس أنكر وجود الاله صراحة ، ولكنه اضطر انتهاءا الى الاعتراف بوجوده تحت اسم المادة • وذلك حتى يستطيع أن يضع تفسيرا ما للكون والحياة •

ان المشكلة الحقيقية أمام الفلاسفة الملحدين هى وجود النظام فى الكون مما يضطرهم الى تعليل النظام بشىء ما يعطيه صفات الاله وان رفض تسميته بالاله •

وكذلك يفعل الطبيعيون فى فلسفاتهم وعقائدهم اذ أنهم ينكرون الاله ثم ينسبون الفاعلية القادرة الخالقة العالمة المريدة المدبرة الى الطبيعة ،

فهم اذن يتخذون الطبيعة الها يعبدونه كما اتخذ ماركس المـــادة الها يعبدها دون التصريح بذلك • وكل ما هنالك انهم استبدلوا كلمة الاله بالمـــادة أو الطبيعة أو المطلق أو الوجود ••• الخ وهذا اقرار ضمنى وفعلى بوجـــود الاله •

ثانيا ــ صفات الاله (مفهوم الالوهية)

(أ) قضية الصفات بين الاسلام والجاهلية

تمهيـــــد :

البديهبة التى يفرضها العقل ويسلم بها فى وقت واحد ، هى أن الاله الحق لابد أن يكون متصفا بصفات الكمال المطلــق ، مــنزها عن كل عيب ونقيصة ، ومنفردا أيضا بهذه الصفات بحيث يمتنع اجتماع هــذه الصفات لغيره ، ومن ثم لا يكون له مثيل •

وقد ثبت لنا أن الجميع يسلمون بوجود كائن أعلى للكون هو المبــدأ لكل الكائنات وصاحب القــوة العظمى والفاعلية العليا المطلقــة ، هو الله عــز وجــل •

وهو عند المــاديين المــادة وعند الطبيعيين الطبيعة وعنــد المثاليين المطلق وهكذا •

اذن فالاتفاق[1] قائم كما أسلفنا حول وجود الكائن الاعلى ، ولكن الاختلاف قائم حول تصور كل فلسفة أو عقيدة أو دين لهذا الكائن •

وقد بين لنا الله عز وجل الاساس الذى تقوم عليــه العقائد المشركة فى الالوهية بأنه الظن فى الله بغير الحــق (•• يظنون بالله غير الحــق ظن الجاهلية ــ ١٥٤ ــ آل عمران) وقال أيضا (ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا ــ ٦ الفتح) ومعنى هذا

---

(١) سواء كان صريحا أو ضمنا .

أن معرفة المسلمين بالله عن طريق الكتاب والسنة تقوم على الظن بالله بالحق وأساس ذلك عندهم هو (ليس كمثله شيء) وهذا الاساس يتفق مع البديهية التى يفرضها العقل ويسلم بها فى آن واحد وهى وصف الله عز وجل بالكمالات المطلقة .

وقد انطلق كثير من فلاسفة اليونان كسقراط وأفلاطون وأرسطو والرواقيين من هذه البديهية ، الا أنهم اختلفوا حول تعيين الكمالات اللائقة والصفات غير اللائقة بالاله الحق .

والايمان بالله واحد لا شريك له ولا ند ولا مثيل ولا شبيه له أمر مركوز فى فطرة الانسان ومغروس فى نفسه قبل مجيئه الى هذه الحياة الدنيا كما أسلفنا الا أن نسق الانسان واتباعه لهواه يأبيان عليه أن يعتقد فى الاله اعتقادا صحيحا موافقا لفطرته ، لانه من شأن التوحيد الخالص رفض المناهج الحياتية المنحرفة ، ومن ثم يلجأ الانسان — حسب قاعدة اختيار العقيدة نتيجة لاختيار منهج الحياة وليس العكس — الى اختيار تصورات وعقائد فى الالوهية فاسدة ليبرر سلوكه ويعلل مناهجه العملية فى الحياة .

فالايمان بالله سميعا بصيرا حكيما قادرا مريدا عالما رحيما شديد العذاب محاسبا على الفعل والقول وما تخفى الصدور مشرعا ومنظما ومتصفا بصفات الربوبية الكاملة ، وهذا الايمان يستوجب منهجا حياتيا معينا رفضه الفاسق ابتداء مما جعله — رفضا لهذا المنهج الحياتى — يلجأ الى تصور فاسد فى الالوهية لا يكون الاله فيه فاعلا ، ولا رقيبا ولا محاسبا ولا مكلفا ، وذلك حتى تتوافق عقيدته فى الكون والحياة مع سلوكه وأفعاله ومنهاج حياته .

(ب) الاتجاهات الرئيسية فى مفهوم الالوهية فى الفكر البشرى :

ويمكننا أن نحـــدد الاتجـــاهات الرئيسية للفكر البشرى الوضعى فى الالوهية كالاتى :

١ — الطبيعيون : وهؤلاء يجعلون القوة العليـــا فى الكون كامنـــة فى الطبيعة ومن ثم يصبح الانسان أحد أفراد الطبيعة ، والطبيعة هى الفاعلة ومن ثم فكل ما يفعله الانسان أمر طبيعى وبذلك يتساوى الخير مع الشر والفضيلة مع الرذيلة ولا يكون هناك خلود للنفس ولا جزاء بعد المـــوت ، ومثال ذلك الالوهية عند أرسطو •

٢ — المـــاديون : وهؤلاء لا يختلفون فى تصـــورهم للالوهيـــة عن الطبيعيين كثيرا حيث أحلوا المـــادة محل الطبيعة الا أن تصورهم لحركة المـــادة الحتمية بجعل الانسان مجردا عن الارادة وهو يتحرك فى ســـلوكه بحتمية تاريخية لا يستطيع لها دفعا ومن ثم ينتهى الامر الى تجريد الانسان من مسئوليته عن أفعاله الخلقية واعتبار كل ما يصدر عنه أمرا طبيعيا أو كونيا حتميا ويبطل بذلك الحساب والجزاء بعد الموت حيث ينكر هذا الفكر أى وجود للروح أو النفس ، ان اعتبار المـــادة هى الاله عند المادى يعنى انه اصطنع لنفسه — واهما — الها بلا ارادة وبلا حساب وبلا تكليف وبلا سمع أو بصرا وهذا هو الهدف المنشود من هذه العقيدة حتى يحيا صاحبها بلا أدنى قيد خلقى أو ضابط يوجهه للخير ويمنعـــه عن الشر • ومثال ذلك فلسفة ماركس •

٣ — المثـــاليون : أطلقت هـــذه التسمية على أصـــحاب العقائد التى تنادى بوجود غاية عظمى يسعى اليها العالم والانسان متمثلة فى الاله أو فى كائن أعلى هو مثال الكمال • وهـــو فى نفس الوقت منتهى طموح وأمـــل

كل حى ينتهى اليه بعد مماته • وأبرز مثل لذلك مذهب أفلاطون الذى سمى الاله مثال المثل وجعله على قمة الخير والجمال فى الوجود •

ويمثل هيجل فى العصر الحديث مثالية جدلية حيث تصــور الكون فى حركة جدلية متطورة تطورا لا نهائيا نحو الامثل المتمثل عنده فيما يسميه بالمطلق وذلكخلال نمو الوعى الكونىوالعالمى متقدما نحو الافضلوالمطلقهو الكون فى حركته الازلية الابدية نحو الامثل وحركة المطلق جدلية بمعنى انها تنتقل من الحــالة الى نقيضها ثم الى حالة وســط بينهما ثم الى نقيــض الوسط وهكذا •

ومن ثم نجد أن هيجل فى مثاليته قريب من وحدة الوجود ، الامر الذى انتهى به الى نفس النتيجة العملية التى ينتهى اليها المــاديون والطبيعيون وهى مساواة الخير والشر واعتبار كل ما يحدث من الانسان بلا مسئولية مترتبة عليه هذا بالرغم من أن هيجل يحتم على الانسان منهجا حياتيا معينا يحاول فيه المحافظة على الخير للوصول الى الامثل الا أن العقيدة الخالية من الايمان باله مريد مكلف محاسب مجازى فى الاخرة لا تملك ضمانات حقيقية لقيام الخير والفضيلة بين الناس •

٤ ـــ وحدة الوجود : ويتصور أصحابها الاله والعــالم كلا واحــدا ويعتقد البعض منهم أن الاله هو عقل العالم الكلى أو نفسه الكلية مثال ذلك فى الفلسفة اليونانية المذهب الرواقى •

ويرى البعض منهم أن الاله أحد أفراد هذا الكون الا أنه يحتل منه مكان القمة بيد أن الوجود أو الكل يجمعه ويحيط به مع كل شىء آخر ومثال ذلك التاوية فى الصين القديمة والتى تمثلت بعــد ذلك فى الكونفوشيوسية والبوذية وكلاهما من أديان وحدة الوجود •

ويرى فريق ثالث من أصحاب وحدة الوجود أن الاله غير الموجودات ولكنه حال فى كل شيء وفى كل مكان وهؤلاء هم أصحاب الحلول وانتهى الفكر الصوفى فى العالم الاسلامى بأبشع انحرافاته على يد الحلاج بالحلول وعلى يد ابن عربى بوحدة حيث رأى العالم والانسان بالذات انعكاس الوجود الالهى ٠

والنتيجة العملية لهذا الاتجاه فى الالوهية هى نفس النتيجة العملية للاتجاه المادى بل أن المحصلة الفكرية للاتجاهين واحدة ٠ وذلك لان القائل بأن الوجود هوهذا الكون المشاهد ولا شيء سوى ذلك وأن عوامل تنظيمية متمثلة فى المادة وحركتها لا يختلف كثيرا عن الذى يقول بأن الوجود هو هذا الكون أو العالم المشاهد وهو يتضمن فى داخله الاله المنبث فيه والذى هو بمثابة عقله أو نفسه أو روحه وعلى الصعيد العملى يتساوى الخير والشر والرذيلة والفضيلة حيث يصبح كل شيء من فعل الاله المنبث فى كل شيء حتى الشر وينتهى الامر الى جبرية الهية أو كونية أو طبيعية لا يصبح فيها الانسان مسئولا عن فعله كما أن العالم المادى أزلى أبدى عند الطبيعيين والمادة أزلية أبدية عند الماديين وليس ثمة موضع لقيام الساعة والحياة الاخرة وكذلك الامر بالنسبة لاصحاب وحدة الوجود لان الاله عندهم منبث ومتحد مع كل شيء وهو أزلى أبدى وكل شيء أزلى أبدى أيضا ٠

وهكذا يتبين لنا الاتفاق الكبير بين المذاهب الالحادية وبين مذاهب وحدة الوجود ٠

(٢) أسماء الله الحسنى وصفاته العلى فى الاسلام

(أ) تمهيـــــد :

ثبت لنا أن الايمـــان بالله عز وجـــل واحدا لا ند له ولا شريك له من الامور التى يعلمها البشر علما ضروريا نابعا من حقيقة وجـــودهم البشرى الخاضع •

فالفطرة هى أساس التوحيد وأساس الايمان بالله ، والاقرار بالالوهية (أى الاقرار بالخضوع لكائن أعلى) أمر متفق عليـــه بين جميـــع البشر ، وهو بين بذاته لا لبس فيه ولا ابهـــام •

أما الانحراف الذى يصيب فطر الناس فهو تحولهم من التوحيد الى الشرك أو من الايمان الى الكفر • والكفر والالحاد يمكن ردهما الى الشرك فكريا وعمليا حيث وجدنا أن المنكر للالوهية صراحة مثبت لها ضمنا ومقر بهـــا فعـــلا •

فالكافر والملحـــد يضطر لتفسير نظام الكون وتعليل نشـــأة الحيـــاة واستمرارها الى نسبة الجبرية والحتمية وعلة النظام الى شىء ما ، هـــو بالضرورة ــ ورغم أنف الملحد ــ كائن أعلى بالنسبة للكائنات الواقعة تحت جبره • وسلطانه ونظامه ، ومن ثم يقر بالاله وان كان تحت اسم آخر •

فالخلاف بين الفكر المـــادى والفكر الدينى هو فى تسمية الكائن الاعلى الذى مصدر الجبرية والحتمية فى الكون وفى وصف الكائن • فجوهر الخلاف بينهما ليس حول اثبات الالوهية أو انـــكارها بل فى أسماء الـــكائن الاعلى وصفاته •

ومن هنا يمكننا القول بأن المــاديين مشركون وكافرون كما وصفهم القرآن الكريم لانهم لا ينكرون الالوهية البتة بل يصفون الاله بما لا يليق بكماله ، كما أنهم يرفضون تسميته الاله ويسمونه بغير أسمائه الحسنى •

ومن ثم كان المبحث الرئيسى فى التوحيد الاسلامى هو مبحث صفات الله عز وجل وأسمائه الحسنى حيث يستوجب التوحيد الاسلامى من المؤمن معرفة الله عز وجل بأسمائه وصفاته كما سمى نفسه وكما وصف نفسه عز وجل فى كتابه الكريم وكما وصفه رسوله ﷺ فى السنة الصحيحة المحققة •

(ب) أهمية معرفة الله بأسمائه وصفاته كما جاءت فى القــرآن الكريم والســنة :

الايمان بالله الها واحدا لا شريك له وربا واحدا لا ند له ، أمر فطرى يمكن أن يدركه الانسان وحــده دون معلم ودون رســول ودون وحى من السماء ، بيد أن معرفة أسماء الله وصفاته تفصيلا عــلم خبرى لا يعــرفه الانسان لا بالفطرة ولا بالعقل ومن ثم كان لابد من الرسالة السماوية لهذه المعــرفة •

وتكمن أهمية ذلك فى أن الانسان يتعامل فى حياته الدنيا مع الله عــز وجل فهو يرجوه ويخافه ويدعوه ويطلب منه ويعبده ويتذلل له ، لان سعادة الانسان فى الدنيا والاخرة متوقفة على اتصاله بخالقه وربه والهه الحــق الذى لا اله ولا رب ولا خالق سواه •

ومن ثم استوجب حدوث هذا الاتصال أن يتوجه الانسان فى دعائه وصلاته وندائه ورجائه وخشيته لله رب العالمين وليس الى غيره ، فاذا فعل شيئا من ذلك متوجها الى غير الله عز وجل ، فقد أصبح هذا الفعل هبــاء منثــورا •

ومعنى هذا انه لابد أن يدعو الله بأسمائه هو التى سمى بها نفسه والتى تدل على كمالاته المطلقة اللائقة بألوهيته ، ولابد أيضا أن يتوجه بقلبه الى الموصوف بصفاته هى التى وصف بها نفسه ، فاذا دعا كائنا بأسماء لم يسم الله بها نفسه فقد دعا غيره ، واذا توجه بقلبه الى موصوف بصفات غير التى وصف بها نفسه فقد توجه الى غيره .

وهو عندما يتوجه الى غير الله الحق الذى لا اله الا هو باعتبار هذا الغير الها فهو لم يتوجه الى شيء ، لانه ليس من اله الا الله فاذا جعل غيره الها فهو ليس باله وانما هو مخلوق وصفه بالالوهية وبذلك يكون قد جعل مع الله الاله الحق الذى لا اله غيره الها من دونه وهو أيضا يكون قد توجه الى أوهام ، سماها آلهة ليس لها من سلطان أو قدرة أو نفع أو ضر .

وذلك لان القول بوجود آلهة أخرى مع الله أو من دونه قول باطل فمن قال بأن نبيا ابن للاله وتوجه الى هذا الابن الاله — حسب زعمه — بالدعاء أو توجه الى الاله الاب بالدعاء فانما هو يتوجه الى لا شيء لانه يدعو وهما ، خرافة ، أسطورة ، باطلا ، ضلالا ، ولا شيء أكثر من ذلك لانه فى الحقيقة ليس من اله الا الله الاله الواحد الذى لم يتخذ شريكا ولا ولدا لذلك قال نوح لقومه المشركين (أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان ..) ٧١ آل عمران أى أن جدالكم فى هذه التى تزعمون أنها آلهة ليس الا جدالا فى مجرد أسماء بدون مسميات فهى أوهام وأباطيل لانه ليس من اله الا الله . ومثلها قوله تعالى على لسان يوسف الى صاحبى السجن المشركين فى يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار — ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ... — ٤٠ يوسف) .

ولذلك أمر الله عز وجل ألا ندعــوه الا بأسمائه الحسنى الذى علمنا اياها فى القرآن الكريم فقال تعالى ... ولله الاسماء الحسنى فادعوه بهـا ١٨٠ ــ الاعــراف) .

فالدعاء والمناجاة وطلب النفع أو طلب دفع الضر كل ذلك اذا كان لله بأسمائه الحسنى فهو نداء الى سميع بصير مجيب قادر كــريم غنى ، أما دعاء الكافر فهو دعاء موجه اما الى موجود مخلوق ضعيف لا يملك الاستجابة وتحقيق المطلوب واما الى وهم لا وجود حقيقى له وانما هو مجــرد اسم بلا مسمى حقيقى قال تعالى عن دعائه وعن دعاء الكافرين (له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء الا كباسط كفيه الى المـاء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين الا فى ضلال ــ ١٤ الرعد) أى فى ضياع .

ويفسر لنا هذا الامر اعتبار المتوسل أو المتقرب الى الله بوثن أو صنم أو ملاك أو ولى أو نبى أو شمس أو كوكب ، أو أى مخـلوق من دون الله ، اعتباره مشركا فان من يتقرب اليه بغيره ويوصف بقبوله الشفاعة من دونه بحيث توجب عليه هذه الشفاعة الاستجابة ليس هو الله عز وجل لان الله عز وجل لا يوجب عليه شىء من دونه أمرا لا يريده بمشيئته عز وجل . ومن ثم فالمتوسل به والمتوسل اليه ليسا الا من قبيل الوهم والباطل .

والذى يعزو التدبير والعناية بين الموجودات الحية وغير الحية الى فعل الطبيعة يدين لوهم اسمه الطبيعة مدبرة منظمة فاعلة حكيمة .. الخ .

والذى يعزو النعمــة التى يحيا فى ظلها والجبرية التى تحـكمه الى ما يسميه بالمـادة الازلية الابدية المتطورة انما يدين لوهم اسمه المـادة لانه لا يوجد شىء اسمه المـادة الازلية لان كل ما هو موجــود فى الكون

مخلوق لله عز وجل ومن ثم يكون الطبيعى قد اتخذ الطبيعة الها ووصفها بصفات الربوبية ويكون المادى قد اتخذ المادة الها ووصفها بصفات الالوهية والطبيعة والمادة مخلوقات فهما اذن الهان باطلان أو هما وهمان لا وجود لهما لان واقع الطبيعة انها أشياء مخلوقة وليس ثمة شىء كلى عام واسمه الطبيعة وواقع الماديات أيضا انها أشياء مخلوقة وليس ثمة شىء كلى عام اسمه المادة الازلية .

فالطبيعيون والماديون بعيرون أوهاما اذن وتفسيراتهم للكون والحياة تفسيرات وهمية أو خرافية بعيدة عن العقل والمنهج العلمى التجريبى الذى لا يسلم الا بما هو مشاهد محسوس محول بينما لا يمكن الاحساس أو مشاهدة أو تحديد ما يسمى بالمادة الازلية كما لا يمكن مشاهدة ما يسمى بالطبيعة كشىء عام كلى يعزى اليه التغيرات الحيوية والمادية فى الارض .

فالمادة والطبيعة اذن موجودان وهميان بحكم المنهج العلمى التجريبى الذى يثبت وجود أى شىء غير محسوس أو مشاهد محدد فى الزمان والمكان .

ومن ثم فالانسان عندما يشرك أو يكفر بالله عز وجل انما يتوجه بعبوديته الفطرية حارقا اياها اما لاوهام وأباطيل وخرافات واما لاشياء مخلوقة من دون الله عز وجل فهى كآلهة ومخلوقات فى نفس الوقت تمثل المستحيل عقلا والباطل أو الخرافة وجودا ، لانه ليس سوى الخالق والمخلوق وليس سوى الاله الحق وما سواه : العبيد . اما أن يكون الموجود الها وعبدا أو خالقا ومخلوقا فى آن فهذا هو الوهم والخرافة .

ومن يتوجه الى غير الله بالعبودية وصف غير الله بصفاته عز وجل وهذا

شرك ومن توجه الى الله وقد وصفه بصفات غير صفاته ودعاه بأسماء غير أسمائه لم يتوجه الى الله وانما توجه الى غيره أو الى وهم فهو مشرك أيضا •

ومن‌ثم يصبح التوجه الى الله عز وجل ودعائه بأسمائه وصفاته التى وصف بها بنفسه ووصفه بها رسوله هو أساس التوحيد فى الاسلام • وتلك أهمية قصوى فى مجال التوحيد •

(ج) منهج معرفة أسماء الله الحسنى عز وجل وصفاته العلى :

هل يستطيع الانسان بالاعتماد على عقله معرفة صفات الله العلى عز وجل وأسمائه الحسنى ؟••

للاجابة على هذا السؤال نقول ان الانسان يستطيع معرفة الله عز وجل بفطرته وعقله معا أى اذا استخدم العقل فى ضوء الفطرة السوية أما اذا كانت فطرته منحرفة فان العقل يمكن أن يمده بأدلة عقلية على عقيدته المنحرفة • ومع ذلك كله فأكثر ما يستطيع أو يعرفه فى مجال الالوهية بفطرته السوية وعقله بل وبكل أجهزة الادراك البشرية فى ضوء الفطرة السوية هو أن يعرف أن للكون وله خالقا وأنه ليس مخلوقا ، فهو اذن مخالف لكل ما يراه ويحسه ويسمعه من كائنات •

وعندما يغفل الانسان عن هذه الحقيقة الاخيرة ــ أى ضرورة القول بمخالفة الخالق المخلوقات ــ نتيجة الجهل أو عقيدة الاباء الموروثة الوثنية فانه غالبا ما يحاول تلمس الالوهية فى الاجرام السماوية كالشمس اذا عرف فائدتها لحياته أو الكواكب ، القمر ، النجوم أو أى شىء آخر يظن أن حياته متوقفة عليه •

ولقد كان قوم ابراهيم من عبدة الاجرام السماوية وفى ضوء الفطرة استخدم ابراهيم النظر العقلى ليصل الى حكم يقينى عن الالوهية محاولا معرفة صفات الاله الحق وأسمائه فهو — بمقتضى الفطـرة — متيقن بأن الاصنام لا يجوز أن تكون آلهة ، واذا أخذناها رموزا لآلهة فى السماء فلماذا لا نتوجه الىهذه الالهة مباشرة وهو بمقتضى الفطرة — متيقن أنه لا يجوز أن يكون فى الكون آلهة بل هو اله واحد . فماذا يا ترى يكون الاله الحق بين هذه الاجرام السماوية التى عبدها قومه .

وذهب ابراهيم عليه السلام ليبحث عن الاله الذى يوافق فطـرته . (وقال ابراهيم لابيه آزر : أتتخذ أصناما آلهة ؟ انى أراك وقومك فى ضلال مبين — وكـذلك نرى ابراهيم ملكوت السماوات والارض وليكون مـن الموقنين فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال : هـذا ربى . فلما أفل ، قال : لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغا قال : هذا ربى ، فلما أفل ، قال : لئن لم يهدنى ربى لاكونن من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة قال : هذا ربى ، هذا أكبر ، فلما أفلت ، قال : يا قوم انى برىء مما تشركون . انى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والارض حنيفا وما أنا من المشركين — الانعام — ٧٤ — ٧٩) وهكذا نجد ابراهيم عليه السلام كلما دله عقله على شىء ليتخذه ربا وآلها رفضه بالفطرة ، فاستبعـد الكوكب ثم القمـر ثم الشمس ، ثم كان نتيجة البحث بالدليل والعقل الفشل والتسليم بالعجـز حيال هذه المحاولة . فرجع من حيث بدأ ، وعاد الى فطرته وهى : الايمان بوجود خالق له وللكون مع العجز عن معرفة أكثر من ذلك ، أى أكثر ممـا تعطيه الفطرة من هذه المعرفة العامة الشاملة المبهمة ، فالفطرة التى خلقها الله سبحانه وتعالى فى الانسان ، لا تعطيه مهما استخدم الانسان من وسائل المعرفة ، معرفة تفصيلية عن الله سبحانه وتعالى وعن حقائـق الكون وعن

الحكمة من الخلق بعامة ، وخالق الانسان بخاصة • وعن حقائق الغيب ومستقبل الانسان الابدى • وعن كيفيات التقرب الى الله وعبادته مما يعرف بالشعائر التعبدية • ومن ثم قال ابراهيم عندما أفل القمر مقرا ومبينا أن معرفة ربه بأسمائه وصفاته لابد أن تكون آتية له من خارج فطرته • ولابد أن يمده بها ربه ويعرفه بنفسه • فقال (لئن لم يهدنى ربى لاكونن من القوم الضالين) وعندما أفلت الشمس وأدرك بدليل الفطرة أيضا أنه لا يتغير ولا يتحول ولا يغيب ، كما أدرك أن كل ما يعبده الناس على الارض سوى الله باطل ، ضج منهم الى ربه وأعلن (قال يا قوم انى برىء مما تشركون) وهنا ترك الاستدلال بالعقل جانبا ، وأدرك أن الطريق الى معرفة ربه بأسمائه وصفاته ليس ذلك ، وانما هو بامداد من ربه ، فان لم يمده الله بالهداية فلن يهتد اذا أبدا •

ويدل ذلك أيضا على أن ابراهيم قد عرف بمحض فطرته أن ربه الذى خلقه وخلق الكون ، لن يتركه حائرا ضالا دون أن يمده بالهداية التى يرجوها • ومن ثم فضل أن يظل على هذه المعرفة الفطرية الشاملة المبهمة من أن يذهب فى نية دلالات العقل والمنطق واستدلالات الفكر بقياس الخالق على المخلوق •

ومن ثم عاد ابراهيم مسرعا الى فطرته التى بدأ منها ، حيث التسليم بوجود فاطر للسماوات والارض والانسان وحيث الايمان بعناية الخالق بخلقه وتوجه اليه وقال (انى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والارض حنيفا ، وما أنا من المشركين) ذلك لان الفطرة تدل عليه واحدا لا مثيل له ولا شريك ولا متحولا ولا فانيا •

ومن ثمفان أكثر ما تدل الفطرة السوية عليه صاحبها مستعينا بالعقل

هو وحدانية الله عز وجل ومخالفته للمخلوقات باعتباره خالقا وليس مخلوقا ولا يستطيع الانسان معرفة أكثر من ذلك ولو حاول فانه يضل • وليس من منهج بعد هذا الا الوحى •

ومعنى هذا أن الفطرة لم تدل ابراهيم عليه السلام الى الصفات التى تنبغى لله رب العالمين بقدر ما دلته الى الصفات التى لا تنبغى له •

بيد أن ابراهيم قد توصل بفطرته الى أساس الصفات الالهية جميعا أو الاصل الذى تنبنى عليه جميع الصفات • ونعنى به نفى المثلية بين الاله الحق وبين جميع الكائنات بلا استثناء ويتضح لنا هذا من رفض ابراهيم لكل ما عبده قومه من آلهة مزيفة لانها متحولة وآفلة ومتغيرة وحيث أن كل ما هو مشاهد ومحسوس يعتوره التغير والتحول فقد انتهى ابراهيم الى أن الاله الحق الذى تدل عليه فطرته لا ينبغى أن تجرى عليه سنن التحول والتغير والافول لان هذه من صفات العبيد وخصائص المخلوقين فلا يجوز أن يوصف بها الاله الخالق • وحيث أن كل ما هو مشاهد ومحسوس للانسان سواء على الارض أو فى الفضاء متغير وآفل فان الاله الحق ليس كائنا محسوسا مشاهدا • فهو اذن موحد ولكنه غائب عن الابصار ولذلك انتهى ابراهيم عليه السلام الى التسليم بأنه لا بد من هداية الله عز وجل والا لكان من الضالين فقال (لئن لم يهدنى ربى لاكونن من القوم الضالين) واكتفى بما تدله عليه فطرته لاجئا الى خالقه متوجها اليه قائلا (يا قوم انى برىء مما تشركون ، انى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والارض حنيفا وما أنا من المشركين) •

وهذا تسليم من ابراهيم عليه السلام بأنه لابد من مصدر الهى

للانسان ليعرف ربه بالصفات والاسماء التى تنبغى له وهذه معرفة الله عز وجل عن طريق الوحى وهو طريق معرفة الله التفصيلية لاسمائه وصفاته وهو يكمل طريق الايمان الفطرى ويفصله ويوضحه ويؤكده •

(د) معرفة صفات الله عز وجل وأسمائه بين منهجى الرأى والوحى :

يؤسس القرآن الكريم مفهوم الالوهية ويثبت صفات الله عز وجـــل على قاعدة رئيسية علما أن الانسان يدركها بالفطرة وهى مخالفة الله عز وجل للمتغيرات (كل ما فى العالم المحسوس حولنا متغير) فليس يوجـــد مثله موجود يشابهه أو يماثله أو يحاكيه لا فى وجود ولا فى ذاته ولا فى صـــفاته ولا فى أفعاله ، ويخبرنا الله عز وجل عن هذه القاعدة الاساسية التى ينبنى عليها توحيده وتنزيهه بقوله تعالى (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ١١ الشـــورى) •

٣ ــ قاعدة تنزيه الاله عند الفلاسفة ونقدها :

ويختلف مفهوم الالوهية ــ بمقتضى هذا الاساس وحسب عقيـــدة السلف ــ عن مفهوم الالوهية عند المتفلسفين فى الحضـــارة الاســـلامية (الفارابى ابن سيناء وغيرهما) حيث انهم يؤسسون مفهـــومهم للالوهية على أساس أن الوجود عندهم ينقسم الى نوعين :

واجب وممكن

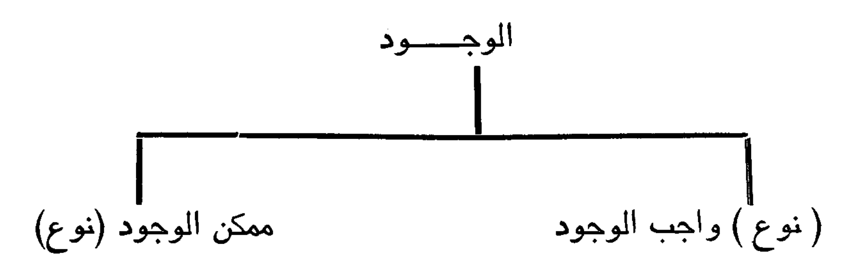
وقالوا ان واجب الوجـــود هـــو الاله •

وممكن الوجود هو كل الموجودات من دونه ومعنى هذه الصفة عندهم هو أن وجود الاله يعنى ذاته بينما أن وجود ممكن الوجود طارىء عليه لان الاصل فيه العدم (العجيب فى الامر أن هؤلاء الفلاســـفة أنكروا الخلـــق وقالوا بقدم العالم وأزليته وهذا متناقض مع الاساس الوجودى عندهم

ومع ما تمثله هذه الفكرة من تنزيه ظاهرى بين الاله وبين ما سـواه مما جعل كثيرا من المسلمين المخلصين يقبلونها ويعتبرونها غـير مخالفـة لحقيقة التوحيد القرآنية ظنا منهم بأن القول بأن الاله واجب الوجود وغير ممكن الوجود يثبت المخالفة المطلقة بين الاله وبين ما سواه ولكن الحقيقة غير ذلك تماما ، اذ أن هذا الاساس الوجودى عند المتفلسفة يعتبر خروجا على الحقيقة القرآنية ، ليس خـروجا فى الالفاظ والمصـطلحات والاسماء فقط ، وهو فى مقام الالوهية خروج ليس هينا ، ولكنه خـروج ومخـالفة لجوهر الاساس القرآنى للتوحيد مما أدى بهؤلاء الفلاسـفة الى مخـالفة عقيدة التوحيد بالكلية حتى كفرهم الامام الغزالى وابن تيمية وغيرهم من أئمة ومجتهدى أمة الاسـلام .

وبيان هذه المخالفة هو أن المثلية قائمة بين الواجب والممكن فى وجـه من الوجوه وهو كون كل منهما نوعا متدرجا تحت جنس أعلى هو (الوجود) وبذلك أصبح مفهوم الوجود عند الفلاسفة محيطا بكل شىء حتى بالاله . بينما المفروض أن الاله عقلا هو الاعلى قال تعالى (سبح باسم ربك الاعلى ــ الاعلى) فهـو محيط بكل شىء وليس محاطا بشىء ، قال تعالى (.. وكان الله بكل شىء محيطا ــ ١٢٦ النساء) وقال تعالى أيضا (هو الاول والاخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم ــ ٣ الحديد) وقد فسرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه (الاول الذى ليس قبله شىء والاخر الذى ليس بعده شىء والظاهر الذى ليس فوقه شىء والباطن الذى ليس دونه شىء). وننتهى من هذا الى أنه محيط بكل شىء وليس محاطا بشىء .

كذلك يظهر لنا فساد الاساس الذى يبنى عليه الفلاسـفة مفهـومهم للالوهية اذا وضعناه فى صورة منطقية دالة على الجنس والنـوع هـكذا اسم كل دال على جنس الاجناس .



والذى يظن أن هذه التفرقة بين الاله وما سواه تفيد المخالفة المطلقة بينهما مخطىء ولذلك لان الواجب هنا يخالف الممــكن فعــلا ولكن ليس من جميع الوجوه • اذ يبقى وجه يتماثلان فيه وهو أن كلا منهما نوع فى جنس•

وهكذا يخالف جوهر تنزيه الاله عند الفلاسفة القرآن فى أمرين :

الاول : هو أن الاله عندهم ليس هو الاعلى وايس محيطا بكل بشىء حيث مقولة الوجود تحيط به ، بينما ينص القرآن الكريم على أنه تعالى هو الاعلى وهو بكل شىء محيط •

الثانى : ان الاله عندهم مخالف لكل ما سواه مخالفة ليست مطلقـــة وليست من جميع الوجوه اذ التماثل قائم بين الاله وبين ما سواه فى وجه من الوجوه وهو ان كل منهما نوع فى جنس أعم •

ولذلك نجد أنهم انتهوا الى القول بأن الاله أزلى والعالم أزلى فماثلوا بعد ذلك بين الاله وبين غيره فى الازلية وهذا الوصف وحده كفيل بأن يجر الفيلسوف الى كثير من المماثلات بين الاله وغيره وعــلاوة على أنه غفــل الاساس القرآنى لنفى المثلية المطلقة وهو حقيقة الخلق •

٤ ـ قاعدة التوحيد الاسلامية :

فحقيقة الخلق التى تتضمن وصف الاله وحده بالخالقية ونفيها عن غيره كما تتضمن وصف غيره بالمخلوقية ونفيها عنه سبحانه هى التى تنفى المثلية بينه عز وجل وبين كل ما سواه نفيا مطلقا ومن جميع الوجوه •

قال تعالى (... الله خالق كل شيء وهــو على كل شيء وكيل ــ ٦٢ ــ الزمر) وقال تعالى (ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا اله الا هو ــ ٦٢ ــ غافــر) .

فقصر الخالقية عليه عز وجل وحــده يعنى فى نفس الوقت وصــف ما سواه بالمخلوقية ، واثبات المخلوقية لكل ما سواه يعنى افراده عز وجل بالخالقية .

وهذا هو التفريق التام والمخالفة المطلقة بين الاله الخالق والعبــد المخلوق فلا يمكن اعتبار الخالق والمخلوق نوعين تحت مقــولة الوجــوه .
وبيان هذا أن الخالق ينفرد بالازلية والاولية فليس سواه موجودا قبل بدء الخلق فغيره موجود بمشيئته وزائل أيضا بمشيئته تعالى ، فــلا يوجــد اشتراك هنا فى مقولة الوجود أو أى مقولة أخرى بين الخالق والمخلوق فى وجه من الوجوه ، لان الخالق عز وجل موجد (بكسر الجيم) وما سواه (أى المخلوقين) موجد (بفتح الجيم) ولذلك لم ترد فى أسماء الله الحسنى أو صفاته العلى لا فى القرآن الكريم ولا فى السنة اسم أو صفة واجب الوجود لله ، كما لم ترد اسم أو صفة ممكن الوجود لغيره .

وفى ذلك دلالة واضحة على أننا يجب فى مسألة الاسماء والصفات أن تلتزم بما ورد فى القرآن والسنة متبعين لا مبتدعين ، وان كان هذا مبــدأ اسلاميا فى التوحيد والتشريع فانه بالنسبة للتوحيد أكثر أهمية والزاما .
فلا يجوز أن نطلق على الله عز وجل اسما لم يرد فى القرآن والسنة وكذلك لا يجوز أن تصفه الا بما وصف به نفسه فى القرآن الكريم والسنة الصحيحة .

٥ — الصفات الالهية ومشكلة التعبير منها بلغة البشر واستغلال الذين في قلوبهم مرض لها ابتغاء الفتنة :

ثبتت لنا بالفطرة والعقل والوحى مخالفة الله عز وجـــل للمخـــلوقات (ليس كمثله شيء •••) وهذا المبدأ الرئيسى للتوحيد الاسلامى يستتبع فى الحقيقة مشكلة بيانية أو تعبيرية لان نفى المثلية المطلق بين الخالق والمخلوق ويستتبع أن ألفاظ اللغات البشرية ، التى وضعت أساسا كأصوات اصطلاحية تعارف عليها أهل كل لغة ، للدلالة على أشياء مادية ومعنوية لكن كلها — بلا شك — مخلوقة ، نقول ان هذا يستتبع قصور اللغة البشرية وعجزها حين التعبير عن الصفات الالهية التى ليس كمثلها صفات فى المخلوقات •

ولكن — لمـــا كان البشر لا يفهمون ولا يستوعبـــون الا من خـــلال الالفاظ البشرية فانه ورحمة من الله بنا — قد خاطبنا الله عز وجل بلغتنا التى نستخدمها فى حياتنا الدنيا وذلك بكلامه المعجز الذى تحدى به البشر بالرغم من أنه يتألف من ألفاظ هى مصطلحات ومواضعات تواضعوا عليها ، هـــذا بالنسبة للرسائل السماوية بعامة وبالنسبة للرسالة الاخيرة بخاصـــة لذلك شمل القرآن الكريم نوعين من الايات :

الاول :

الآيات المحكمة وهى الايات ذات الدلالة القطعية التى لا تحتمل معانى مشتركة أى اللائى تتحدثن عن موضوعات فى عالم الشهادة المحسوس حيث وضعت هذه الالفاظ أصلا للدلالة عليها فلا شبهة اذن تنتج من استخدامها ومثل هذه الايات هن الاصل فى القرآن وهن أمه •

الثانى :

وهى الآيات المتشابهة ، وهى التى تتحدث — بألفـاظ بشرية — عن صفات الله عز وجل التى ليس كمثلها صفات بين المخلوقات قاطبة ٠

كذلك تتحدث هذه الآيات عن أحوال اليوم الاخر وحياة أهل الخلدين الجنة والنار وعن أشياء فى عالم الغيب ليست بالقطع مادية ومحسوسة مثل أشياء عالم الشهادة — مثل القلم وأم الكتاب واللوح المحفـوظ وسـدرة المنتهى وغير ذلك وكل هذه الالفاظ تدل على موجودات مادية تستخدمها فى عالمنا الدنيوى الارضى لكن القرآن الكريم يطلقهـا على مسميات فى عالم الغيب رغم المفارقة بين أشياء العـالمين ٠ ولكنه يطلقها عليها لمـا بين هذه المخلوقات وتلك من بعض وجوه التشابه ٠

ولتأخذ على ذلك مثلا للتوضيح بأول مخلوق خلقه الله عز وجل وهـو القلم الذى أمره الله فكتب مقادير كل شىء حتى تقوم الساعة وذلك فى أم الكتاب ٠ هذا المخلوق سماه الله عز وجل (القلم) وسمى السـجل الكونى العام الذى دون فيه (القلم) مقادير كل مخلوق (أم الكتاب) ولعل الحكمة — والله أعلم — من تسمية المولى عز وجل لاول مخـلوق القـلم تكمن فى التشابه بين وجه من وجوه حقيقة المخلوق الاول وبين الشىء الذى نسميه فى عالمنـا نحن القلم ، ولعل هذا الوجه هو وظيفة كل منهما وهى الكتابة ٠
ولكن ليس معنى هذا أن نتصور القلم الذى هو أول مخلوق أى القلم الغيبى على غرار القلم الحبر أو الجاف أو الرصاص الذى نستخدمه ، بل هو بلا شك شىء آخر ومختلف تماما ماهية وحقيقة ووجودا وخصائص الا فى خاصية واحدة وهى الكتابة والتسجيل والتدوين ٠

وكذلك الامر بالنسبة لام الكتاب وسائر مخلوقات عالم الغيب تختلف

عن الاشياء التى تحمل نفس الاسماءفى عالم الشهادة وتشتبه معها فى وجه من الوجوه ولذلك سمى القرآن الكريم هذه الآيات بالمتشابهات والمشـكلة الكامنة وراء هذه الحقيقة التعبيرية اللغوية هى أن يتشابه به الامـر على البعض فيفهمون أن القلم مثل أقلامنا وان أم الكتاب من كتبنا وان أجنحة الملائكة التى حدثنا عنها القرآن الكريم مثل أجنحة الطيور وبنفس الكيفية غافلا عن كونها أشياء فى عالم الغيب وليست محسوسة •

فاذا كان هذا الامر واقعا بالنسبة لموجـودات عالم الغيب التى هى مخلوقة فما هو الحال بالنسبة لاستخدام الالفاظ المخلوقة والموضوعة ابتداء لاشياء وصفات مخلوقين للتعبير عن صفات الخالق عز وجل لا شك أنه يكون من الامور المتشابهة أيضا اذ أن وصف الله عز وجل بصفة والتعبير عن هذه الصفة بلفظ بشرى ليس معناه وصف الله عز وجل بنفس الدلالة اللغـوية لهذا اللفظ كما يطلق على صفة المخلوق حيث المبدأ الفطرى القرآنى العقلى يقول ان الخالق ليس كالمخلوق لا فى ذاته ولا فى صفاته ولكن اختيار اللفظ بالذات من العلى الحكيم عز وجل لوصف نفسه به انما هو للايحاء بتكوين مفهوم قرآنى خالص للالوهية • ومن ثم تعتبر آيات الصفات من المتشابهات لانها تتحدث عن صفات الله عز وجل التى ليس كمثلها صفات بين المخلوقات جميعا مع أنها ألفاظ بدلالات بشرية أصـلا من ناحية وان كانت — كأيات قرآنية — كلام الله عز وجل من ناحية أخرى •

فقول الله عز وجل (ليس كمثله شىء وهـو السميع البصـير — ١١ الشورى) فيه نفى مطلق للمثلية بينه وبين مخلوقاته ومع ذلك فقد أثتب انه سميع بصير وهما صفتان يوصف بهما غيره كالانسان • وهذا يوجب اثبات هاتين الصفتين لله عز وجل على أساس وفى ضوء مبدأ ليس كمثله شىء الذى

يستتبع انه ليس كمثل علمه علم وليس كمثل سمعه سمـع وكذلك الامـر بالنسبة لكل ما وصف الله عز وجل به نفسه •

وكذلك نفهم قول الله عز وجل (يد الله فوق أيديهم •••) فى ضـوء مبدأ ليس كمثله شىء فنقول : نثبت لله ما أثبته لنفسـه مـع النفى المطلق للمثلية بين الصفة الواردة فى الآية وبين صفات المخلوقين ••• وهكذا •

ومن ثم يمكننا القول أننا بذلك نوافق القـرآن حين نثبت له ما أثبته لنفسه منزهين الله عز وجل عن التمثيل بغيره • وليس ثمة مشكلة فى القرآن حول مسألة الصفات الالهية بسبب قصور لغة البشر عن التعبير عن صفات الله عز وجل ما دمنا نثبت صفاته تعالى فى ضوء مبدأ (ليس كمثله شىء)•

بيد أن المشكلة تنجم بسبب آخر وهو وجود فئة من الناس فى قلوبهم مرض يتركون المحكم من آيات الله عز وجل ويتقصون المتشابهات ويتتبعونها بغية الفتنة وتفريق المسلمين وتشكيكهم فى عقيدتهم وسبيلهم الى تحقيـق مبتغاهم ، هذا هو التصدى لتأويل هذه الآيات المتشابهات •

فالمشكلة ليست ناجمة أصلا من الايات المتشابهات ذاتها وانمـا هى ناجمة نتيجة لفعل اختيارى مقصود لفئة من الناس الذين يتعرضـون لها ابتغاء الفتنة بحجة التأويل •

يؤكد هذا الحكم أن هذه الايات ذاتها لا ينجم عنها أدنى مشكلة عند المؤمنين المخلصين والراسخين فى العلم فى حين يثير مرضى القلوب حولها المشـاكل •

قال تعالى (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محـكمات هن أم

الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيبتغون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، وما يذكر الا أولوا الالباب — ٧ آل عمران)

التأويل له معنيان : الاول تفسير دلالة الالفاظ والايات حسب قواعد وأصول اللغة العربية والثانى هو انتقال المعنى من العلم الى الواقع الحياتى للانسان وبهذا المعنى يكون التأويل هو التحقيق منه قول السيدة عائشة عن استغفار رسول الله ﷺ وتسبيحه بحمده (يتأول القرآن) أى يحقق وينفذ أمر الله عز وجل له (فسبح بحمد ربك واستغفره ، انه كان توابا — ٣ — النصر) .

فاذا فهمنا معنى التأويل فى قوله تعالى (وما يعلم تأويله) فى الاية بالمعنى الاول ، فيمكننا أن نقرأ الاية باعتبار الوصل بعد (الا الله) فتكون (وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم يقولون ..) أى أن الراسخين فى العلم يعلمون تأويله مع الله عز وجل فيكون الرسوخ فى العلم وعلم التأويل هنا مقصود به العلم بأصول وقواعد ودلالات اللغة العربية التى نزل بها القرآن ومناسبات النزول والناسخ والمنسوخ وغير ذلك من علوم القرآن الكريم .

أما اذا كان التأويل بمعنى معرفة الشىء على حقيقته أو بمعنى تحقيق الامر والنهى القرآنيين[1] أو بمعنى معرفة حقيقة صفة الله عز وجل التى وصف بها نفسه ، فاننا نكون بازاء موضوعات لا يعلمها الا الله عز وجل

---

(١) أما بخصوص تحقيق الامر والنهى القرآنيين فهذا ممكن تنفيذه وهو فى طاقة البشر .

ويستحيل على الانسان معرفتها حتى ولا الراســخون فى العلم • ومن ثم يجب الوقف فى القراءة بعد قولنا (الا الله) فتكون القراءة هكذا (وما يعلم تأويله الا الله • والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا •••) وتكون كلمة (الراسخون) مبتدأ فى جملة جديدة وليست فاعلا معطوفا على لفظ الجلالة •

والوقف بعد لفظ الجلالة (الا الله) أولى وأرجــح على كل حال لان الراسخين فى العلم يسلمون بما جاء من عند الله مؤمنين به ممــا يدل على عزوفهم عن الخوض فى التأويل بمعنى معــرفة حقيقة موضــوعات الايات المتشابهات وان كانوا يعرفون دلالات هذه الايات ومعانيها لغويا •

ومن ثم ليس هناك مشكلة على الاطــلاق بالنسبة للمسلمين المؤمنين لتسليمهم بأن القرآن كلام الله تعالى المتوقفين عنــد حدود الاستطاعــة البشرية فى فهم الايات المتشابهات وبخاصة التى تتحدث عن صفات الله عز وجل ، فنثبت ما أثبته الله لنفسه • وننفى ما نفاه الله تعالى عن نفسه •

أما أصحاب القلوب المريضة الزائغة الذين يبتغون الفتنة فهم يسلكون حيال آيات الصفات احدى السبيلين الضالين الاتيين ، وقبل ذكرهما نود أن نذكر عوامل الفتنة أو عوامل تفرق الناس حول فهم آيات الصــفات • وهما عاملان أحدهما رئيسى ، والاخر عرضى •

العامل الرئيسى :

هو اختيار بعض الناس الميل والاعراض عن الحق ورغبتهم فى الفتنة بغيا منهم وهم (الذين فى قلوبهم زيغ) •

العامل الثانى :

وهو عامل عرضى مساعد للاول وهو قصور اللغة البشرية عن التعبير عن موضوعات عالم الغيب وعن التعبير عن صفات الله عــز وجــل أى عن

حقيقة صفاته جل وعلا • وهذا عامل مساعد ، ولذلك فهو لا يتسبب فى التفرق والفتنة عند المؤمنين بينما يستغل بسببه أهل الزيغ الايات المتشابهات للاضلال واثارة الفرقة وفتنة الناس •

أما السبيلان اللذان يسلكهما أهل الزيغ فهما :

الاول :

اما أن يثبتوا صفات الله عز وجل متغافلين أو متناسين لمبدأ (ليس كمثله شىء) فينسبون لله عز وجل الصفة التى يحملها اللفظ كما تنسبه اللغة البشرية للمخلوقات ، ومن ثم يقع صاحب هذا التشبيه فى شناعة التشبيه والتجسيم ومثل هذا يقول فى تأويل قوله تعالى (يد الله فوق أيديهم ••) ان لله يدا كيد الانسان ، تعالى عن ذلك وهذا غلو فى الاثبات نتيجة فصل آيات الصفات عن مبدأ (ليس كمثله شىء) •

السبيل الزائغ الثانى :

وهو طرف نقيض مع الاول حيث يعتمد على مبدأ (ليس كمثله شىء) ولكن بغلو يؤدى الى تفسير آيات الصفات تفسيرا يؤدى الى الغائها وتعطيلها أو الى نفيها صراحة • فأصحاب هذا السبيل يقولون ان قول الله سبحانه وتعالى (ليس كمثله شىء ••) يستلزم نفى صفة اليد والسمع والبصر وسائر الصفات التى يوصف بها العبيد ، تنزيها لله عز وجل عن التشبيه والتمثيل والتجسيم والتكييف وهذا تعطيل للصفات التى وصف الله عز وجل بها نفسه فى كتابه •

وحيث أن أصحاب هذا السبيل من أهلة الملة ولا يمكنهم رفض آيات الله عز وجل الواردة فى الصفات فانهم يلجأون الى اعتبار هذه الايات مجازية

ومن ثم يبيحون لانفسهم التأويل ليس بالمعنى الاول للتأويل وليس بالمعنى الثانى للتأويل اللذين سبق ذكرهما ولكن بالمعنى الثالث للتأويل وهو معنى اكتسبه اللفظ بعد نشأة علم الكلام ونشوء الفرق وهو يعنى — كما مارسه المتكلمون — صرف اللفظ القرآنى عن معناه ودلالته اللغوية الى معنى آخر تماما لا تحتمله أصول وقواعد اللغة العربية وذلك بحجة أن هذه الايات على سبيل الكناية والمجاز .

فيقولون ان اثبات الوجه لله عز وجل (ويبقى وجه ربك ذى الجلال والاكرام) كناية عن الذات الالهية ، ويقولون عن معنى (عينى) فى قوله تعالى (.. ولتصنع على عينى ...) بالعناية أى بعنايتى ورعايتى ويقولون أن اليد فى قوله تعالى (يد الله فوق أيديهم ..) كناية عن القدرة أى أن قدرة الله مع قدرتهم . وكذلك يؤولون قوله (وهو السميع البصير) بالقدرة . وهكذا .

وأصحاب هذا السبيل أخطأوا فى أمرين :

الاول : انهم لم يتوقفوا عن الخوض فى المتشابهات ولم يسلموا بما جاء فيها تسليما كما هو شأن الراسخين فى العلم الذين أخبرت عنهم آية آل عمران .

الثانى : انهم حاولوا معرفة حقيقة ما وصف الله به نفسه فزعموا أن اليد هى القدرة والعين هى العناية والرعاية وهكذا .

الثالث : انهم اعتمدوا على عقولهم فى فهم آيات الصفات . والعقل عاجز فى هذا المجال .

ومن ثم انتهى بهم الامر الى أنهم — رغبة منهم فى التنزيه حسب زعمهم — قد نفوا وعطلوا الصفات التى وصف الله بها نفسه فى كتابه .

أما المذهب الذى عليه سلف الامة فهو اثبات ما أثبته الله لنفسه من صفات فى ضوء مبدأ (ليس كمثله شىء) مع التوقف عن البحث فى حقيقة

صفات الله عز وجل وتأويلها مسلمين بما جاء فى القرآن الكريم والسنة من صفات على مراد الله وعلى مراد رسول الله ناسبين له هذه الصـــفات حتى لو كانت أسماء هذه الصفات تطلق على الصفات التى يوصف بها خلقه على أساس أنه ليس كمثله شىء ومن ثم فليس كصفته التى وصف بها نفسه صفة وبذلك يكون الله عز وجل منفردا بصفاته لا يشاركه فيها غيره اللهم الا فى اسم الصفة دون حقيقة الصفة فنفى المثلية بين صفة اليد والسمع والقدرة وسائر الصفات التى توصف بها المخلوقات هو نفى مطلق •

والنتيجة أن السلف يصفون الله بما وصف به نفسه بلا تعطيل أو نفى من ناحية وبلا تجسيم أو تشبيه أو تمثيل أو تكييف من ناحية أخرى • مع التوقف عن محاولة معرفة حقيقة الصفات الالهية •

٦ ــ اليهود والنصارى والتعطيل والتجسيم :

ان العقل البشرى واحد فى كل زمان ومكان ومن ثم كان متشابها حيال رسالة السماء فى كل زمان ومكان ولذلك نجد المجسمة والمشبهة والمعطلة فى بنى اسرائيل كفرق واتجاهات فكرية مختلفة حول فهم نصوص التـــوراة الخاصة بالصفات الالهية كما حدث فى تاريخ الاسلام فنجد غلبة اتجـــاه التعطيل عند اليهود ، وغلبة اتجاه التجسيم والتشبيه عند النصارى ، حيث شبه النصارى الاله بالمخلوق فنسبوا له ابنا وهو غلو فى اثبات الصفات حتى انهم جعلوا لبعض الصفات شخصانيات مستقلة فى ذات الاله فأصـــبحوا مثلثين وقالوا ان الله ثالث ثلاثة ، فكفروا (لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة وما من اله الا اله واحد ــ ٧٢ ــ المائدة) وكذلك جسم النصارى حين قالوا ان الله هو المسيح ابن مـــريم حيث قالوا ان الله تجسم فى شـــخص المسيح فقالت عالى (لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابنمر يم ــ ٧٢ ــ المـــائدة) •

بينما غلب على اليهود اتجاه التعطيل وغلوا فى هذا الاتجاه حتى قالوا

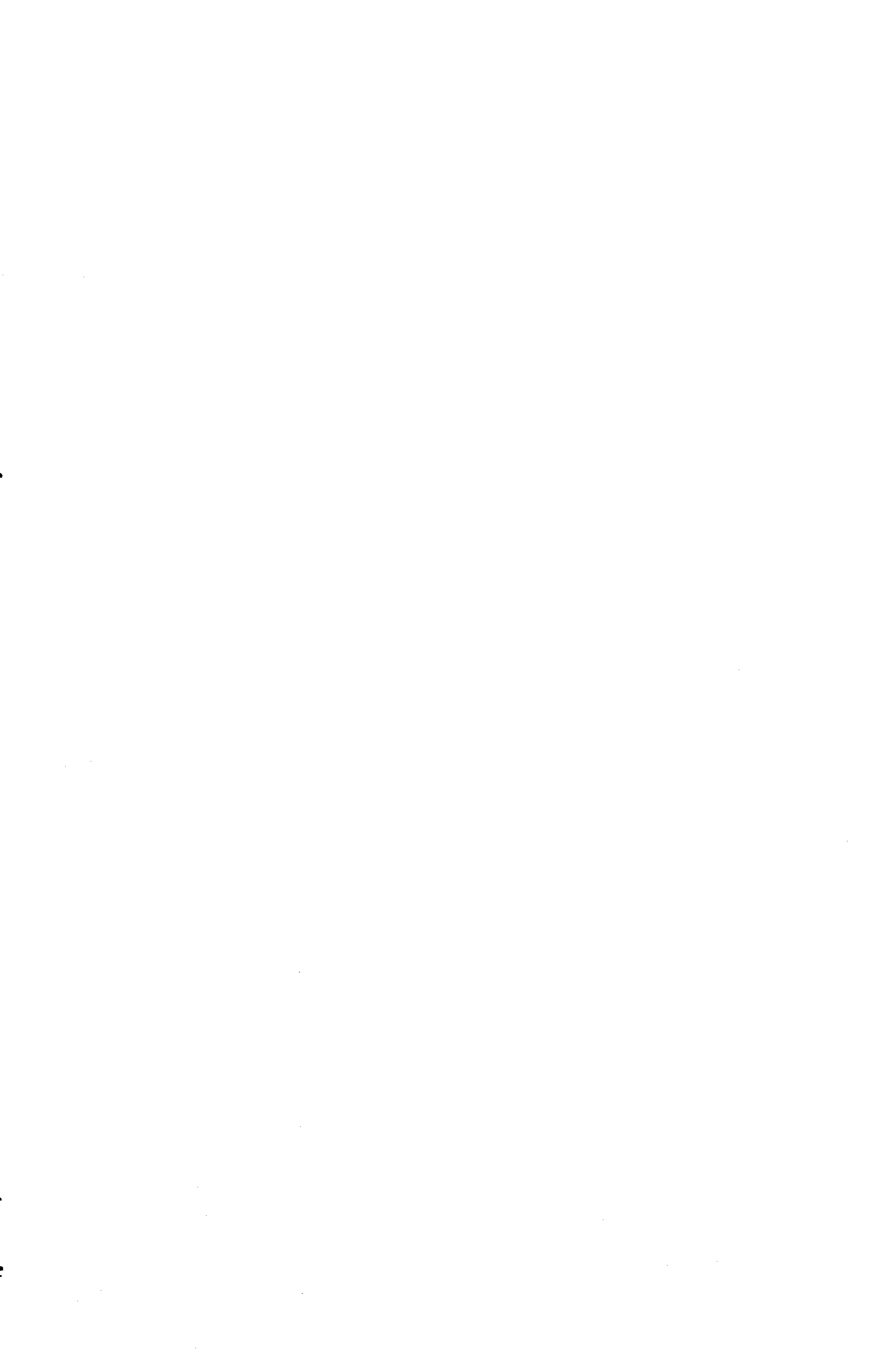
أو قال بعضهم ان الله عز وجل لا يرزق ولا ينفق ولا يعطى ولا يخلق ولا يفعل قال تعالى مخبرا بمقالتهم الشنيعة (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء — ٦٤ — المائدة) .

ومن الواضح أن اليهود والنصارى وصلوا الى هذين المفهومين الفاسدين عن الالوهية والذين كفروا جميعا بمقتضاهما نتيجة الغلو فى الاثبات بعيدا عن مبدأ (ليس كمثله شىء ..) من ناحية ونتيجة الغلو فى النفى حتى لم يكن النفى قاصرا على المثلية بل تعداها الى كل الصفات من ناحية أخرى .

لذلك يردهم الله عز وجل الى العقيدة الصحيحة وينهاهم عن الغلو فى موضوعين من كتابه تعالى (يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق ، انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه — ١٧١ — النساء) وقال تعالى (قل يا أهل الكتاب لا تغلو فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ٧٧،٧٨ — المائدة) .

ففى الموضع الاول اشارة ونهى عن الغلو فى الاثبات الذى وقع فيه النصارى حتى جعلوا الله هو المسيح فقرن النهى عن الغلو بالنهى عن وصف المسيح بالالوهية .

وفى الموضع الثانى اشارة ونهى عن الغلو فى النفى فقرن النهى عن الغلو بالنهى عن اتباع أهل الاهواء والزيغ والضلال ثم اتبع هذا بالبلاغ عن لعن داود وعيسى ابن مريم للذين كفروا من بنى اسرائيل ، وفى هذا اشارة الى غلو اليهود فى النفى وهو الاتجاه المضاد لغلو النصارى فى الاثبات وكلاهما كفر بالله عز وجل .



ثالثا : مفهوم العناية الالهية بين الاسلام والمذاهب الفكرية (الجــاهلية)

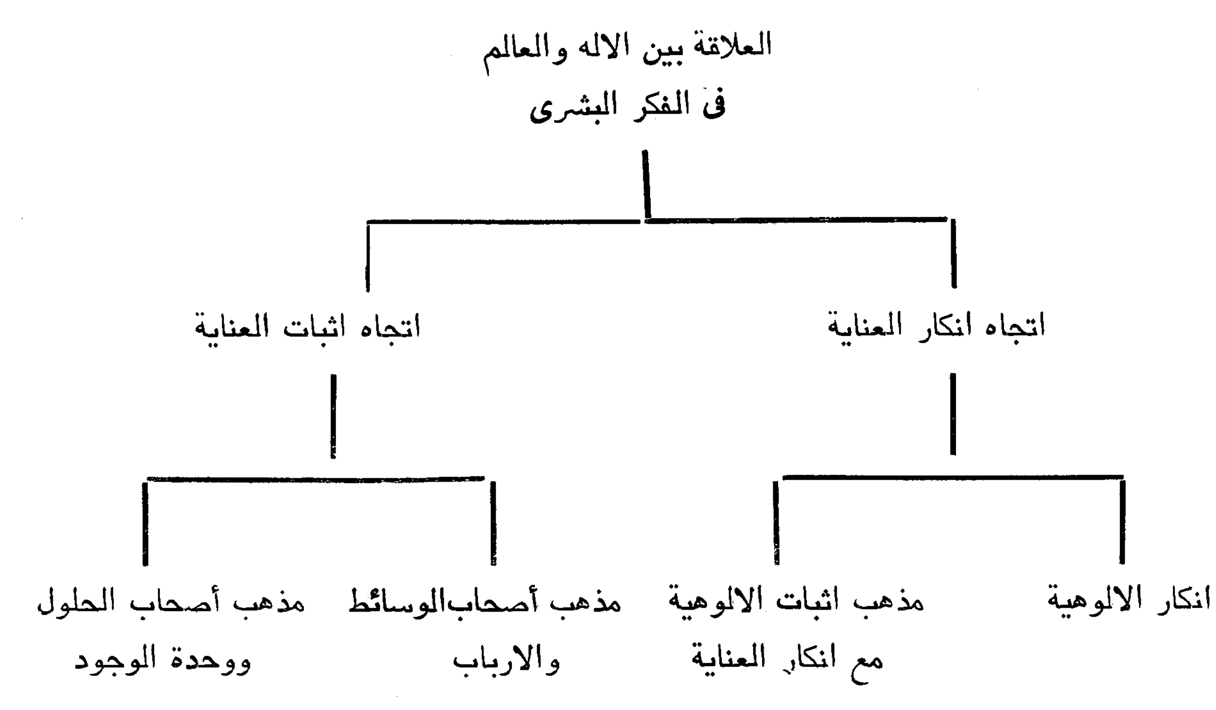
(أ) تمهيــــد :

ضلال الفكر البشرى فى مجال معرفة الصفات الالهية حين يبتعد عن الوحى الالهى لم يقتصر ــ كما علمنا على صــفات الالوهية بل تعــداه الى صفات الربوبية ، أى صفات الافعال الالهية وهو مجال اذا بعد فيه الانسان عن الوحى يضل فكره حين يريد أن يفسر عناية الله عز وجل بالمخلوقات • ولكنه يأخذ أيضا نفس الاتجاهات التى أخذها فى قضية الصفات بعامة أو قريبــا منها •

بينما نجد أن للقرآن الكريم تفسيرا خاصا للعناية الالهية والخلــق لا يشاركه فيه غيره من السبل والاتجاهات الفلسفية المختلفة وسنعــرض للاتجاهات البشرية الضالة ثم نعرض للتفسير الاسلامى •

(ب) العناية الالهية فى المذاهب والاديان الجاهلية :

ينقسم تفسير العلاقة بين الاله وغيره أو بتعبير آخر يمكن أننقسم التفسيرات الوضعية للعناية الالهية الى اتجاهين رئيسيين كالاتى :



العلاقة بين الاله والعالم
فى الفكر البشرى
اتجاه انكار العناية
اتجاه اثبات العناية
انكار الالوهية
مذهب اثبات الالوهية
مع انكار العناية
مذهب أصحاب الوسائط
والارباب
مذهب أصحاب الحلول
ووحدة الوجود

الاول : هو اتجاه منكرى العناية الالهية ونفى العلاقة بين الاله والعالم

الثانى : هو اتجاه مثبتى العناية الالهية وتفسير العالم بفعل الاله .

الاتجاه الاول :

أما الاتجاه المنكر فيتفرع الى مذهبين :

أولهما : مذهب منكرى الالوهية كالطبيعيين والماديين وهؤلاء بانكارهم الالوهية صراحة ينكرون عناية الله عز وجل بالخلق وهم عادة ينكرون الخلق ويصفون العالم والمـادة والطبيعة بالازليـة والابدية . وان كانوا — كما مر بنا — يضطرون فى النهاية — لكى يضعوا تفسيرا للاحـداث الحيـوية والظواهر الطبيعية المتغـيرة والنظام الكونى الى نسبة الفاعليـة والعناية والتدبير الى ما يسمونه المـادة أو الطبيعـة : فهم منكرون للعناية الالهية صراحة ومثبتون لها ضمنا .

ثانيهما : مذهب مثبتى وجود الاله مع نفى فاعليته فى الكون تماما ونفى أى صلة منه للعالم وهذا هو مـذهب أرسـطو الميتافيزيقى أثبت أن الاله بالنسبة للكون علة أولى ولكنه علة غائيه وليس علة فاعلية وجعل العالم أزلى قـديم كالاله وعلل الحركة والتغير والحياة والموت وحركة العلل بشـوق الافلاك للعلة الاولى ومحاولة محاكاتها مما أدى الى حركتها الدائرية الابدية، ومن ثم فالعلة الاولى ليست فاعلة فى العالم . وجعـل أرسطو فعـل الاله قاصرا على تأمل ذاته وتعشقها فقط ، فوصفه بالسلبية المطلقة حيال غيره . ونفى بذلك فاعليته وعنايته وصلته بالموجودات وقـد تبع أرسـطو فى ذلك الكثير من الفلاسفة فى العالم الاسلامى على رأسهم الفارابى وابن سينا ، مع بعض التغييرات والتعديلات بقصد التمويه هربا من سيف الردة .

الاتجـاه الثانى :

ويتفرع أيضا الى مذهبين :

أولهما مذهب اثبـات العناية الالهية بالوسـائط والارباب ، وثانيهما مذهب اثبات العناية مع الحلول ووحدة الوجود •

ان المثبتين للعناية الالهية يحارون فى تفسـير التقاء الفعـل الالهى بالمخلوق وصفوا الله تعالى الذى لا أول له بالمخلوق الحادث الذى له بدء فى الزمان •

وهم عادة ما يلجأون ــ لفهم الفعل الالهى فى الخلق ــ الى قياس فعل الخالق على فعل المخلوق ، فاذا ما أثبتوا المخالفة والمباينة بين الاله وبين العالم ، فانهم ، نتيجة لذلك ، يقولون بوجود وسائط وأرباب مشاركة للاله فى فعله فى العالم ، اذ أنهم يقولون باستحالة فعل الفاعل وتأثيره فى الشىء وهو مفارق له الا اذا اتخذ وسائط ووسـائل يصـل تأثيره من خلالها الى الشىء المراد فعله أو التأثير فيه ، وعادة ما يتخذ أصـحاب هـذا المذهب النجوم والكواكب والشمس والقمر والمـلائكة والجن والناس والاحيـاء والانهار وسائطا وأربابا من دون الله ينفـذ بهم عنايته فى المخـلوقات ، ويصفون أصحاب هذا المذهب هذه الوسائط بصفات الربوبيـة التى يجب عليهم أن يفردوا الله عز وجل بها ، فيصفونها بالفعل والتأثير والخالقيـة والتدبير والاحياء والرزق والاماتة والحساب والجزاء والثواب ، أى أنها تصبح أربابا لاتصافها بصفات الربوبية ولاستقلالها فى المشيئة والفاعلية• وذلك حتى يكون نفاذ المشيئة الالهية فى الزمان مقبـولا وميسورا ادراكه للعقل البشرى • وهذا وان كان قائما ــ عند هذه المذاهب لاثبـات العناية الالهية ونفاذ مشيئة الله وقدره فى الكون • ويتفق مع القرآن فى هذا الاصل

الا أن هذا التفسير لصلة الله بخلقه من حيث أنه رب لهم ، تفسير معوج ومرفوض رفضا تاما وحاسما من حيث أنه يجعل مع الله سبحانه شركاء له فى خلقه وفعله وملكه . وقد ظل القرآن المكى ينزل على رسول الله ﷺ طيلة ثلاث عشر عاما لهدم قضية الشرك برفض وجودوسا ئط بين الله وخلقه فى الفعل والنفع والضر ، لان ذلك يؤدى الى اتصاف من هم من دونه تعالى بصفات الربوبية الخاصة به وحده .

المذهب الثانى الذى يطرحه العقل البشرى كحل لتفسير العلاقة بين الله والعالم ، فى حالة القول بالعناية الالهية التامة والكاملة للعالم بدون القول بالوسائط بينهما ، هو أن تكون العلاقة بين الله والعالم علاقة مماسة، وتكون الصلة بينهما التقاء بالمعنى المكانى والزمانى للالتقاء وذلك قول أشنع من الاول . لان الاول يجعل الله بائنا عن خلقه مترفعا عنه ، عاليا عليهم ، ويجعل وساطات بينه وبين الخلق لاثبات الربوبية والتدبير والعناية . بينما هذا السبيل الثانى ينزل بالاله من هذا العلو ، ويجعله متخللا فى العالم متلبسا به ، ويغالى البعض فيهم حتى يصبح لاله عنده هو العالم أو هو روح العالم ونفسه الكلية ، والعالم المادى الطبيعى هو الجسد . وذلك فى زعمهم لكى تكون الربوبية تامة والفاعلية ايجابية مطلقة ولكن هذا تصوير مخالف لقرآن أيضا ، تمجه معظم آياته ، وترفضه حقائقه رفضا تاما قاطعا .

تلك هى السبل أمام الذهن البشرى لتصوير العلاقة بين الاله والعالم أما القول بعدم العناية الالهية للعالم ، وهو قول شبيه أو قريب من الالحاد وانكار وجود الاله ، وأما القول بالعناية مع تحديد الارباب والالهة . وذلك قول الشرك الذى لا يستقيم مع العقل والمنطق والفطرة . وأما القول بوجود

الاله متخللا وحالا فى العالم ، ومنبثا فى أجزائه وجزئياته وذراته ومن ثم يكون العالم هو الاله والاله هو العالم • وهذا قول شبيه بالقول الاول حيث حيث أنه يؤدى فى النهاية انكار وجود الاله •

فاما أن يكون الاله واحدا مع انفصاله عن العالم تماما ، واما أن يكون واحدا مع اتصاله به عن طريق الارباب والالهة الوسائط ، وأما أن يكون الاله واحدا متصلا بالعالم اتصالا كليا فيكونا شيئا واحدا •

(ج) العناية الالهية أو الصلة بين الله والمخلوقات فى الاسلام :

ذلك هو حصاد الفكر البشرى حيال هذه المشكلة • أما ما يقدمه لنا القرآن الكريم فهو العقيدة المحكمة ، التى تشهد عند دارسى الميتافيزيقا انها حقيقة نازلة من السماء ويستحيل على العقل البشرى الوصول اليها ، ويؤكد هذه الشهادة تاريخ مذاهب الميتافيزيقا طيلة القرون السابقة على نزول القرآن واللاحقة له •

ان من أخص خصائص الالوهية فى القرآن الكريم • هو انفراد الله سبحانه وتعالى بالعلم الازلى اللانهائى ، والمشيئة المطلقة السامية ، والقدرة اللامتناهية اللائقة بجبروته وكبريائه وهو الحى الخالد الباقى الذى لا يموت وهو رب كل شيء وخالقه ورازقه ومدبره • وان من كمال الربوبية اللائقة بألوهيته مباشرة الله سبحانه وتعالى للكون المخلوق بادارته وتنظيمه وعطائه ومنعه ، ونفعه وضره ، وامداده بكل مقومات الوجود ، أو مقومات الانتهاء ، سواء كان ذلك لكل موجود على حدة أو للعالم أجمع • وذلك يتم بأمره النازل الى العباد فى حياتهم الزمنية • فأمر الله سبحانه انما ينزل بما يحدث على الارض من احداث يومية صغيرها وكبيرها هزيلها وخطيرها ، كما هو مسجل فى أم الكتاب •

أما كيفية تحقيق هذه الاوامر ونفاذها فى الخلق ، فذلك واضح مما نذكره عن فعل الله عز وجل بالعلل الغيبية (أى الملائكة) والعلل الطبيعية هذا بالنسبة لكل شىء ولكل فعل يحدث فى الارض • وليست العلل الفيزيقية التى نعرفها نحن البشر ، ونحسها ونتحكم فيها ، وكذلك العلل الغيبية التى يتم الشىء بها مع العلل الفيزيقية ، ليست هذه ولا تلك سوى جنود الله فى ملكه جنود الله تعالى يفعلون بمشيئته وفاعليته ، دون استقلال عن المشيئة والقدرة الالهية ، مع قدرته تعالى على الفعل بدونها • وذلك أننا لا يمكن فعلا أن ننسب لمن يضرب بالعصا الضرب للعصى دونه • وانما الفعل منسوب للفاعل لان العصا ليست سوى أداة يصدر تأثيرها عنها حسب قصد الفاعل وارادته • والملائكة المكرمون لكونهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون فانهم بذلك ليسوا سوى جنودا لله يفعل بهم فى الارض والسماء، وهكذا شاء الله أن يكون فعله فينا •

فالقرآن لا يخبرنا ان الله اذا متخللا فى العالم منبثا فيه أو حالا فى كل شىء ، أو أن الله والعالم موجود واحد • بل ان كثيرا من الايات تثبت بينونته عن العالم ، وعلوه فوق عرشه ومنثم وضح لنا القرآن فى أكثر من موضع — كما سنرى — ذلك حتى لا يظن أحد غير ذلك • وحتى لا ينحرف الفكر الدينى عند المسلمين بعد ذلك ، كما انحرف عند سابقيهم الى الاعتقاد بأن الملائكة شركاء الله فى الفعل والخلق والتدبير ، كما اعتقدوا أن العلل الفيزيقية ذات فاعلية مستقلة عن الفاعلية الالهية مما أدى بهم الى الشرك والوثنية • فبين أن الملائكة ليسوا سوى جنود الرحمن وسفرته ، كما أن العلل الفيزيقية هى سنة الله التى ارتضاها بفعله فى الخلق ، بمشيئته •

ولقد حدث فى تاريخ الفكر البشرى عند الفلاسفة العقليين من اعتبر الكواكب والاجرام السماوية آلهة وأربابا بأن جعلها وسائط بين الله والخلق

تشاركه فى الخلق والتدبير • كما حدث فى العقائد الوثنية عند الشعوب من جعل الملائكة آلهة باعتبارها بنات الله تشاركه أيضا فى الفعل والتدبير وانزال النفع والضر على البشر ، علاوة على انتشار عبادة الاجرام السماوية أيضا وكذلك فان هناك من الاديان السماوية ما حرفها أهلها بعد رسلهم فيجعلوا أنبياءهم أبناء الله يشاركونه الملك والسيطرة والاحياء والامانة والمغفـرة والحساب يوم الجزاء •

تلك هى منزلقات الفكر البشرى فى أعوص مشكلة تواجهـه ، فكيـف عالجها القرآن ، أثبت القرآن الكريم أن الله ، دائن عن خلقه ثم نفى أن يكون بينه وبين خلقه وفعله وسائط حيث يقول (هو الذى خلق السماوات والارض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، يعلم ما يلج فى الارض وما يخـرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم والله بما تعلمون بصير ، له ملك السماوات والارض ، والى الله ترجـع الامور — الحديد ٤ـ٥) •

فأثبت انفراد الله بالخلق وعلوه فوق عرشه ، وتلك هى البينونة لله عمـا سواه • ولكن تلك المفاصله بين الله الخلق ، ليست اهماله لهم او اعتزاله عنهم . بل ان الله مع ذلك يعلم كل شىءفى العالم المخلوق وكل مايتغيره فيه نزولا من السماء من السماء الى الارض ، أو من الارض الى السماء • وهو مالك لهذا العالم مسيطر عليه ، عالم بأفعال الانســان الواقعــة فى الزمان وقوعها وحين تقع وحتى تنتفى — نتيجة لاثبات مباينة الله عن الخلق مع عنايته بهم وملكه وسيطرته عليهم — أية شبهة فى وجود وسائط بينه وبين العالم ، تشاركه الفعل والملك والامــر بقــول (الله الذى خلق السماوات والارض ، ومابينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، ما لكم من دونه

من ولى ولا شفيع • أفلا تتذكرون يدبر الامر من السماء الى الارض ثم يعرج اليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ـ السجدة ـ ٤ـ٥) •

فينفى فى هاتين الايتين وجود ولى أو شفيع أو وسيط أو مشارك لله فى أمره وتدبيره فى الخلق • فالامر يدبره الله من السماء الى الارض وليس من دونه من يشاركه فى ذلك ، ذلك بالرغم من أن الله سبحانه على عرشه بائن عن الخلق • ويفرد الله نفسه الربوبية والخلق والامر والملك مع استوائه على عرشه • ومباينته للعالم بقوله (ان ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليـل النهار يطلبـه حثيثا ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، الا له الخلق والامر تبـارك الله رب العالمين ـ الاعـراف ٥٤) • ففيها يرد الله سبحانه وتعـالى على القائلين بالنجوم والشمس والقمر آلهة أو اربابا مع الله يشاركونه الفعـل والامر فيجعلها مسخرات بأمره • أى أن فعلها وحركتها البادية لنا انما هى من أمر الله ومن ثم فهى واقعة بمشيئته وقدرته ، فليست ذات تأثير مستقل عن الفاعلية الالهية وذلك افراد له بالخلق والامر فقال تعقيبا (الاله الخلق والامر) ، ونفى بذلك أن تكون هذه المخلوقات على ضخامتها وعظمتها مشاركة له فى فعله ، أو وسائط بينه وبين خلقه ، ومثلها قوله تعالى (الله الذى رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لاجل مسمى ، يدبر الامر ، يفصل الايات لعلـكم بلقاء ربـكم توقنون ـ الرعد ـ ٢) فيرد على العابدين للاجرام السماوية بأعتبـارها وسائط بين أمر الله وخلقه ، فبين أن ما يصدر منها من تأثير وفعـل وفائدة للحياة على الارض بعامة وحياة البشرية بخاصة انما هو وبأمره تعالى حيث سخرها لذلك ، ثم بين أنه يدبر الامر ويفصل لنا الايات • والملاحظ فى هذه الايات جميعا ذكر علوه واستوائه على عرشه لاثبات الدينونه ومـع ذلك

يبين تدبيره الامر من فوق سماواته دون وسائط وكما نفى أن تكون الكواكب والاجرام السماوية وسائط بين الله وبين خلقه نفى كذلك كون الملائكة كذلك فقال (وله من فى السماوات والارض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ، يسبحون الليل والنهار ولا يفترون • ام اتخذوا آلهة من الارض هم ينشرون لو كان فيها آلهة الا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون • أم اتخذوا من دونه آلهة قل : هاتوا برهانكم هذا ذكر من معى وذكر من قبلى ، بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون وما أرسلنا قبلك من رسول الا نوحى اليه انه لا اله الا أنا فاعبدون • وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون • يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشتقون ومن يقل منهم انى اله من دونه فذلك نجزيه جهنم ، كذلك نجزى الظالمين — الانبياء — ١٩—٢٩) •

وهكذا بين لنا فى أول الايات أن من عنده أى الملائكة عباده يعبدونه وينفذون أمره ، ويعيعونه ولا يعصونه فكل أفعالهم صادرة بالمشيئة والقدرة والالهية وليست لهم فاعليتهم المستقلة وهذا يثبت انهم أدوات القدرة الالهية تنفذ بهم مشيئة الله فى الكون المخلوق • ثم بين أنه لو كان هؤلاء آلهة مع الله ، أى ذوى مشيئة مستقلة ، لفسدت السماوات والارض فلو شاركه أحد غيره فى الامر والتدبير والخلق ، لما صلح الخلق ، وهذه الحقيقة الخلقية تنفى كون الملائكة شركاء لله فى الامر ، كما تنفى كون أحد من أهل الارض شريك له كذلك فنفى أن يكون له ولد أو أن يكون بين الناس وبين ربهم شفيع أو وسيط ، الا لمن أذن له الله فى ذلك وهذا يعنى أن مرد الامر كله أولا وأخيرا لله سبحانه وتعالى كما يثبت انفراده بالخلق والامر •كل ذلك مع استوائه على عرشه وعلوه فوق خلقه ، وهيمنته وسيطرته وملكه وعلمه بهم كذلك •

ننتهى بذلك كله الى أن مزالق الشرك بالله ، انما تكمن فى النظـــرة الى العلل الفيزيقيـــة والعلل الغيبية لنفاذ القـــدر الالهى فى الارض واعطائها الفاعلية المستقلة واعتبارها مصدرا للخاق والفعل والاحياء والاماتة والتغير والنفع والضر وغير ذلك •

ويمكن اثبات المبادىء التى يقـــوم عليها تفسير العناية الالهيـــة فى الاسلام والمستنبطة من آيات الاستواء كالاتى :

١ — ان الله عز وجل استوى على العرش ومن ثم فهو بذاته بائن عن خلقه وهذا ينفى عنه الحلول ووحدة الوجود •

٢ — فاعلية الله فى الكون مطلقة وعنايته تامة وشـــاملة وكل شىء من خلقه وحده ومع كونه عز وجل بائنا بذاته عن الخلـــق ليس حالا فيهم ولا متحدا مع العالم فانه لم يتخذ وسائط ولا شركاء ولا أرباب معه يشاركونه الفعـــل •

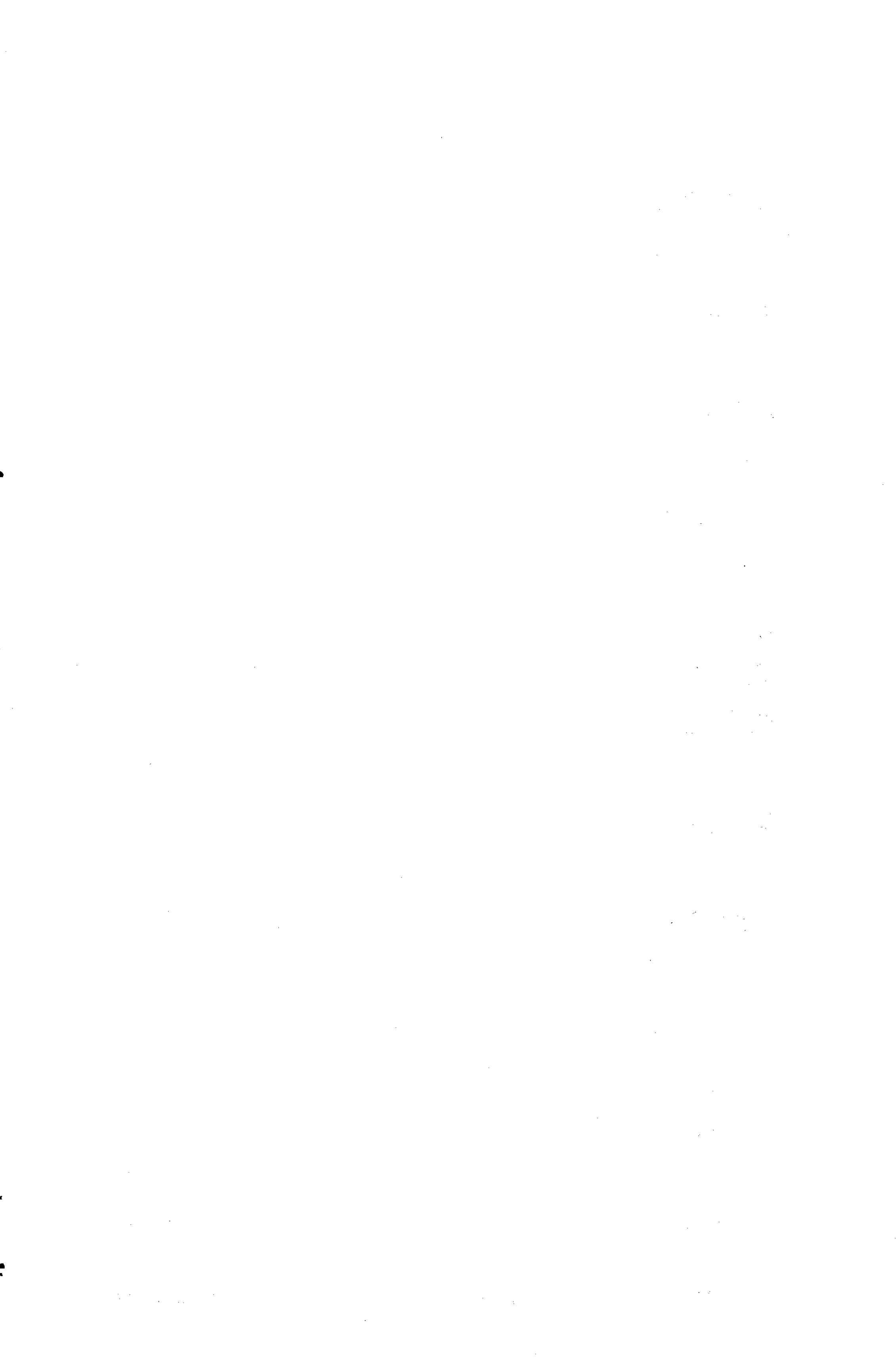
٣ — كل شىء مسخر بأمره فلا مشيئة الا مشيئته ولا شىء يتم الا بأمره فالخلق والامر له •

فالقرآن الكريم يثبت العناية الالهية المطلقة الشاملة التامة فى الكون بلا شركاء ولا شفعاء ولا وسائط ولا أرباب من دونه وبلا حلول أو وحـــدة وجـــــود •

ولكن ألا يقال ان لله جنودا فى السماء والارض هم الملائكة ينفذون له ما يشاء فهو يفعل بهم ألا يقال انهم شركاء له فى الفعل والخلق ؟•

للاجابة على هذا السؤال نقول أن الملائكة جنـــود الرحمن والجنـــود ليسوا شركاء لانهم يعملون حسب مشيئة الله وليس لهم مشيئة مستقلة •

ولتفصيل ذلك ننتقل الى الفصل القادم عن الايمان بالملائكة ••



تفســير الخلــق

(١) الحكمة من خلق الانسان ، وغاية الانسان الوجودية والللبس الحــادث من الخلط بينهما

عندما تسمع سؤال السائل « لمــاذا خلقك الله عز وجل ؟ » فان الاجابة التى ترد سريعا الى ذهن المسلم تتمثل فى قوله تعــالى (وما خلقت الجن والأنس ليعبدون) ولا يخفى على أحد أن الشيطان بالنسبة لهــذه الاجابة فى هذا الموضع نزغة ، اذ عادة ما يوسوس للمرء قائلا وهل الاله فى حاجــة الى أن يعبده غير ؟• أليس فى اثبات حاجة الاله الى العبادة من غيره تناقضا مع مفهوم الالوهية الذى يقوم على الاستغناء المطلق للاله عن غيره وحاجة غيره المطلقة اليه ؟• والرد المباشر على نزغة الشيطان هذه فى هذا الموضع هو الايات التالية للاية السابقة حيث قال الله تعالى وهو أعلم بالسر وما أخفى من السر (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين ــ ٥٦ــ٥٧ الذاريات)•

واذا أردنا أن نعرف سبب وعلة اللبس الذى يحاول الشيطان أن ينزغ نزغته من خلاله فانه لابد من العودة الى الســؤال والى الاجابة فلعل الاية القرآنية التى نذكرها ــ وقول الله كله حق ــ ليست الاجابة الدقيقة على السؤال المطروح ، لا لنقص فى الاية ــ حاشا لله تعالى ــ ولكن بسبب لبس فى موضوع السؤال يجعلنا نظن أن هذه الاية هى الرد المناسب أو الاجابة المناسبة على هذا السؤال بينما يكون السؤال غير محدد أو يحتمل أكثر من معنى واستفهام فتكون الاية الكريمة جائزة للرد على احتمال وليست كذلك بالنسبة للاحتمال الاخر ، وهذا يعنى أن اللبس فى السؤال وليس فى الاجابة المتمثلة فى الاية الكريمة •

ويتضح لنا هذا اللبس اذا تأملنا سؤالا آخر كقولنا لصاحب مصنع سيارات مثلا لمـــاذا تصنع السيارة ؟ حيث نجد أن هذا السؤال يحتمـــل أكثر من سؤال فى الحقيقة .

الاحتمال الاول : أن يكون السؤال موجها الى تعليل وتفســير فعــل صاحب المصنع وحينئذ يكون السؤال فى نطاق الهدف والغاية التى من أجلها أقام الرجل مصنع السيارات الذى يملكه وهو هدف اقتصادى بحت فيقول لك : لكى أربح المـــال .

الاحتمال الثانى : ان يكــون السؤال موجها الـــى تعليل وتفسير الشيء المصنوع والهدف منه وحينئذ يكون السؤال فى الهدف والغاية التى من أجلها تصنع السيارة والفائدة المرجوة منها فيقول لك : لكى يركبها الناس ، فأنا اصنعها للركوب

وهكذا يتضح لنا أن السؤال واحــد ولكنه يفهم أحيانا باعتبــار ان المطلوب هو تفسير فعل الفاعل ويفهم احيانا باعتبار ان المطلوب هو تفسير فعل المفعول والمصنوع .

فاذا انتقلنا الى الاجابة على خلق العالم وخلق الانسان ــ ولله المثل الاعلى ــ لوجدنا أن السؤال المطرح هو أيضا يحتمل المعنيين والاحتمالين فاذا قلنا : لماذا خلق الله المخلوقات ولماذا خلق الله الانسان ؟ فان السؤال يحتمل أن يكون طلبا للحكمة التى من اجلها خلق الله الخلق والانسان وذلك اذا كان السؤال فى نطاق تفسير فعل الله عز وجل .

كما يحتمل أن يكون طلبا للهدف والغاية المطلوب تحقيقها من المخلوق

ومن الانسان وحينئذ يكون السؤال فى نطاق تفسير افعال المخلوق والغاية التى يجب ان يوجه المخلوق فاعليته نحوها ، وفرق كبير بين السؤالين .

والذى تدل عليه الآية (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) هو أنها اجابة على سؤال فى نطاق فعل المخلوق والهدف الذى يجب أن يوجه فاعليته مغالطة — اصبحت الان مكشوفة لان الاية اجابة على السؤال الاتى بالتحديد :

ماهو الهدف والغاية من حياة الانس والجن وماذا عليهم ان يفعلوا تحقيقا لهذا الهدف ؟ فعندما تكون الاجابة : عبادتهم لله وحده . فان القول بعد ذلك بأن الا له فى حاجة الى عبادتهم قول باطل لان عبادتهم منوطة له وليست فى نطاق تفسير فعل الخالق . ومن هنا تكون وسوسة الشيطان القائلة بان الا له فى حاجة الى خلقه من الجن والانس والى عبادتهم بفاعليتهم وليست منوطة بفعل الله عز وجل ، ومكمن اللبس هنا أن الشيطان يجعل هذه الاجابة وهى أن الله خلقهم لعبادته ، يجعلها فى ذهن القارىء اجابة وتفسير وتعليلا لفعل الله عز وجل الفاعل والخالق بينما هى فى الحقيقة تحديد الهدف والغاية التى يجب أن يفعل الثقلان من أجلها . ان الله عز وجل لا يفعل لغاية ولا يخلق لهدف ولكنه عز وجل يفعل ويخلق لحكمة ولذلك لا يجوز القول : ما الهدف الذى من أجله خلق الله الانسان ؟ الا اذا كنا ننسب الهدف التى فاعلية الانسان اما اذا كنا فى نطاق محاولة الفعل منسوبا لله عز وجل فيكون السؤال الجائز هو : ما الحكمة التى من أجلها خلق الله الجن والانس وسائر المخلوقات . عندئذ تكون الاجابة امرا آخر غير العبادة من افعال الجن والانس فهى تفسير لفاعلية الجن والانس اما فاعلية المولى عز وجل فانها تكون دائما لحكمة لان الله عز وجل حكيم . فلا يفعل او يخلق شيئا الا لحكمة .

وللاجابة على هذا السؤال نقول : ان الله خلق المخلوقات بعامة والجن والانس بخاصة لحكمة وهى الابتلاء •

لقد سبب هذا اللبس فى ابتعـــاد كثير من المفكرين فى الاســـلام عن الحقيقة القرآنية التى تعتبر بحق محور العقيدة الاسلامية •

وهذا يدعونا الى بحث هذا الامر بشىء من التفصيل •

٢ ــ لمــاذا خلق الله العالم ؟ ولمــاذا خلق الله الانسان ؟

ذلك سؤال يتحتم على كل نسق فلسفى ــ أيا كان اتجاهه وصــيغته وسمته ومنهجه وعصره أن يناقشها ويقدم الاجابة المقنعة عنهــا • ذلك أن اجابةهذا السؤال،انماتشكلالمحور الاساسىالذىتدورحولهالانساقالفلسفية وترتكز عليه • ان موضوع السؤال هو علاقة الله بالخلق وهذه العلاقة هى نقطة الارتكاز فى كل فكر فلسفى ، حيث هى التى تعلل السابق من الافعال والاحداث الكونية ، وتحدد اللاحق من تلك الافعال • انها حلقة الاتصال بين القديم والحديث ، وهمزة وصل الازل بالابد •

وفى مجال الفكر الاسلامى وقف المتكلمون فريقين متقابلين ، يقابلهما الفلاسفة الاسلاميين كفريق ثالث حيال الاجابة على هذا السؤال • فأثبتت الفرقة الاولى من المتكلمين الغاية منا لخلق والغرض من وجود العالم • فجوزوا للانسان سؤاله عن هذا الغرض وتلك الغاية • وأباحوا مناقشــة هذه القضية • ثم قدموا الاجابة على السؤال دون أن يثبتوا لله الحاجة ومن الخلقحيث هو عندهم ليس بذى غاية لذاته فيتناهى ، فأثبتوا لفعله تعالى الغرض العائد على العباد والخير والنفع المطلوب لهم ، أما هو فقد تنزه عن الغرض وجلب النفع ودفع الضرر •

والفرقة الثانية رفضت أن تعلل وجود الخلق بعـلة من دون المشيئة الالهية المطلقة ، اعتمادا على أنه تعالى فعال لمـا يريد ، ولا يسأل عما يفعل، وغيره يسأل عن فعله • وقالوا ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن • وذلك لانهم فى المجال الفيزيقى رفضوا أن يكون لكل فعل ولكل حركة غاية وسبب حيث أنهم ينكرون وجوب المعلول عن العـلة وذلك حتى لا ينسب الى الله تعالى (اللمية الزائدة على ذاته)[١] • فأثبتوا لله القدرة والمشيئة ووقوع أفعاله دون مرجع أو داع من دونه • ومن ثم رفضوا رفضـا باتا الاجابة على السؤال المطروح ومناقشة هذه القضية •

أما الفريق الثالث من مفكرى الفكر الاسـلامى ، فهم الذين يسمون أنفسهم بالحكماء أو فلاسفة الاسلام • وهؤلاء رفضوا قول هـذه الفرقة الثانية من المتكلمين ، وذهبوا مع الفـرقة الاولى الى أنه يتعين البحث عن اجابة لهذا السؤال ، حيث أنه لا يوجد موجود الا وله غاية وسبب عندهم • فأوجبوا حدوث المعلول عن علته ، وجوزوا ذلك على « واجب الوجـود » باعتبار أنه خلق الخلق بقدرته لمرجع رجع خروج الوجـود المخـلوق من الامكان الى الوجوب بها • ولكنهم اختلفوا عن هذا الفـريق من المتكلمين للغرض والغاية فى الخلق ـــ أى الفريق الاول ـــ فنفوا عن الله أن يكون له فى فعله غرض سواه • (من ايصال خير ممكن ، أو دفع أو ثواب أو غير ذلك ولكنه يترتب على أفعاله هذه الغايات والاغراض[١] فأثبتوا العلة الغائية باعتبارها العلة الفاعلية ، بحقيقتها وماهيتها لفاعلية الفاعـل • هذا بالنسبة

---

(١) صدر الدين الشيرازى ـــ الاسفار الاربعـة ص ٦٢٣ ط • حجر نسخة مكتبة بلدية الاسكندرية •

(١) صدر الدين الشيرازى ـــ الاسفار الاربعة ص ٦٢٣ •

لمفردات الطبيعة ، وفى مجال الافعال الانسانية حيث هذه الموجودات المحدثة تستكمل ماهيتها وحقيقتها باتمام فعلها . أما بالنسبة لواجب الوجود (ملكوته كامل الذات تام الكمال بل فوق الكمال لم يكن له فى فعله غرض ولا غاية له . بل غايته وغرضه ذاته المقدسة)[٢] . أى أن الفلاسفة أو الحكماء يقولون أن ذاته هى غرض الاغراض وغاية الغايات فى الخلق ونهاية الطلبات والاشراق ، لكونه علة العلل . بمعنى أنهم يثبتون للموجودات الجزئية أغراضا وغايات وكمالات تترتب وتنتهى اليه سبحانه وتعالى . فخالفوا الفريق الثانى من المتكلمين الذى رفض باب التعليل مطلقا بشىء سوى المشيئة والقدرة كما خالفوا أيضا الفريق الاول حيث جعلوا العلة غاية غير ذاته .

ذلك هو قول الناس فى هذه المسألة . ولكنا نتناسى ذلك تماما . ونقبل على كتاب الله سبحانه نستلهمه الاجابة على السؤال المذكور حسب منهجنا فى البحث فيه .

ان القرآن الكريم لا يثبت عالما واحدا أو كونا واحدا . وانما يثبت وجود عالمين وكونين ، الاول هو عالم الغيب والثانى هو عالم الشهادة . كما أنه بالنسبة للوجود البشرى يثبت وجودين وحياتين . الاولى : الحياة الدنيا والثانية الحياة الاخرة . ومن ثم ينبغى أن نجد الاجابة التى تعلل وجود العالمين والحياتين . وقبل أن نجيب على ذلك يجب أن نحاول معرفة جواز طرح هذا السؤال من عدمه .

الحقيقة أننا اذا تساءلنا عن سبب خلق الله سبحانه للخلق ؟ لا نكون

نفس المصدر ص ٦٢٤ .

قد أخطأنا أو تجاوزنا حدودنا كبشر وعبيد لله سبحانه . تلك هى النظــرة القرآنية فى المسألة بل أن القرآن يدعونا للتفكر فى هذا السؤال . وذلك عن طريق التأمل الصحيح فى مخلوقات الله وما عليــه الكون من دقــة واتقان ونظام . مما يجعل الانسان العاقل موقنا بأن وراء هذا الكون العظيم المنظم حكمة فى وجوده ، وأنه لم يخلق عبثا .

حقيقة أن الله فعال لمــا يريد ، وأنه لا يسأل عمــا يفعل ، وحقيقة أن القرآن يثبت لله عز وجل كذلك المشيئة المطلقة النافذة فى الكون . ولكن مجرد طرح هذا السؤال على سبيل البحث عن الحكمة النافعة لنا نحن البشر وليس على سبيل الاعتراض على فعل الله ومشيئته جائز ولا غبار عليه . بل هو من الواجب على الانسان فعله (ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الالباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا على جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا ســبحانك فقنا عذاب النار ــ آل عمران ــ ١٩١) .

ان العالم المخلوق بنظامه وببهائه وجماله ودقته وهوله وعظمته ليدل دلالة قاطعة على أنه لم يخلق باطلا . وما كان وجوده غير باطل فان لوجوده حكمة ، وهى عين الحق والعــدل . بل ان الله ســبحانه يخبرنا أيضــا أن السماوات والارض لم يخلقهما من قبيل اللهو ، فقد تنزه عن ذلك . وانما خلقهما أيضا لامر جد وليس بالهــزل . (وما خلقنــا السماوات والارض وما بينهما لاعبين ، ما خلقناهما الا بالحق ولكن أكثر الناس لا يعلمون ــ الدخان ٣٨ــ٣٩) ويؤكد ذلك قوله أيضا (ما خلقنا السماوات والارض وما بينهما لاعبين ، لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين ــ الانبياء ١٦ــ١٧) .

للخلق اذا حكمة فى علمه سبحانه ومشيئته وان كانت مطلقة الا أنه لا يشاء بها خلق الشىء عبثا وانما يخلقه لحكمة ، وأمر جد • وهذا الامر الجد البعيد عن اللهو والعبث من أجله خلق سبحانه الحياتين : الحياة الدنيا والحياة الاخرة • فليس الوجود هو هذا الوجود البشرى الحالى فقط ، والا أصبح وجودا ناقصا لا معنى له • ومن ثم كان هناك وجودا آخر بعد هذه الحياة الدنيا (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون ؟• فتعالى الله الملك الحق لا اله الا هو رب العرش الكريم — المؤمنون ١١٥ — ١١٦) •

كل ذلك يجوز لنا البحث عن الحكمة من خلق الدارين • الاولى والثانية ••• فما هى الحكمة كما يثبتها القرآن الكريم ••• ؟

لا شك أن لهذا العالم وعلى قمته الانسان غاية يسيران اليها وينتهيان عندها ، كما يمكن القول أن غاية العالم التى تتحقق فى نهاية مرحلته الوجودية الاخيرة • هى الحكمة التى من أجلها خلق الله الخلق جميعا •

ان الخلق كفعل لله سبحانه وتعالى انما يدلنا على صفاته العليا • كما أن صفات الله التى أخبرنا عنها الوحى تدلنا كذلك على الخلق والحكمة منه • ان الله سبحانه قد أخبرنا فى هذه الايات الكريمة السابقة أنه تنزه عن اللهو والعبث وذلك لان من صفاته تعالى الحكمة • فما دام الله حكيما فلابد أن تكون أفعاله كلها على مساق الحكمة ومن ثم فهناك حكمة من خلق العالم • ان صفات الله سبحانه هى الدالة على سبب الخلق بعامة وعلة وجود الانسان بخاصة • لقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى بصفاته لندرك ذلك ولكى نستشعر عظمته وعلمه وعظيم سلطانه وقوته وجبروته ورحمته فيكون تعاملنا معه من خلال صفاته العليا فنرهبه وندعوه ونخافه ونحسن الظن به وغير ذلك من سائر صلتنا به تعالى • تلك هى الحكمة من أخبارنا بصفاته ، ندرك بها

علة الخلق وغاية العالم ، والحكمة من ايجاده ، فيمدنا كل ذلك بالتصـور الصحيح عن الوجود • كما نستشعر الرهبة من عذابه ونستبشر بالامال فى رحمته وغفرانه ، فيكون ذلك مقوما لسلوكنا وأفعالنا •

أما متكلموا الاسلام ، فقد ضلوا الطريق ، حين استهدفوا صـفات الله بالبحث فى علاقتها مع ذاته ، فطرقوا بابا مغلقا ، وطـريقا مسـدودا ومنهجا وعرا • يجادلون فى الله وهو شديد المحال • فلم يصلوا بذلك الى نتيجة مجدية أو ذات تأثير على سلوك الانسان أو محققه لهدفه فى الوجود الدنيوى والاخروى • فوق أنهم خسروا الحكمة والفائدة التى من أجلهـا أخبرنا الله بصفاته فى القرآن • وقد جعـل المتكلمون بذلك الله موضـوعا لبحثهم ، وأنى للعقل البشرى أن يصل الى حقيقة خالقه •

لقد أخبرنا الله فى كتابه أنه كريم ، جواد ، وكرم الله وجوده ــ كسائر صفاته ــ يتناسب مع عظيم سلطانه ، وجلال وجهه • ان علاقة الله سبحانه وتعالى بخلقه جميعا تتمثل أول ما تتمثل فى العطاء ، وتتمثل آخر ما تتمثل فى العطاء أيضا • ولقد حاول فرعون أن ينتهج نهجا فكريا خاطئا ، لتضليل من حوله ، فسأل موسى وهارون (قال : فمن ربكما يا موسى ؟ ــ طه ــ ٤٩) • وذلك سؤال عن الله وكأنه يسأل عن ذاته فما كان من موسى الا أن أجاب اجابة توضح العلاقة بين الله وخلقه معرضا عما طلب فرعون لانه ليس فى طاقة أحد من البشر أو غير البشر (قال : ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ــ طه ــ ٥٠) •

ومن ثم يمكن القول أن الله أعطى لكل شىء ماهيته ، وهداه الى فعله أما بالنسبة للانسان فقد أعطاه ما فوق ماهيته •

ان صفاته سبحانه مطلقة ومن ثم يكون عطاؤه لا محدود ولا نهائى فى

كمه وكيفه وقد سبق القول منذ قليل أن الغاية من وجود العالم أو الحكمة التى من أجلها خلقه الله تعالى انما تتمثل فى العلاقة الاخيرة بين الخـــالق والمخلوق • أعنى الفعل النهائى الذى يمد الله به العالم ، فاذا استعرضـــنا القرآن الكريم بمنهج احصائى شامل ، وجدنا تلك الايات الدالة بوضوح وجلاء على الفعل الالهى الاخير الدائم للعالم المخلوق ، وذلك حيث يقول سبحانه (ان فى ذلك لاية لمن خاف عذاب الاخـــرة ، ذلك يوم مجمـــوع له الناس وذلك يوم مشهود • وما نؤخره الا لاجل معدود • يوم يأت لا تكلم نفس الا باذنه ، فمنهم شقى وسعيد • فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق • خالدين فيها ما دامت السماوات والارض الا ما شاء ربك ان ربك فعال لمـــا يريد • وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والارض الا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ ــ هود ــ ١٠٣ـــ١٠٨)

وهكذا يثبت القرآن أن العالم سينتهى على عطاء من الله ، غير مجذوذ أو مقطوع لعباده المؤمنين من الانس والجن • ويؤكد هذه النتيجة العديد من الايات التى تتحدث عن خلود أهل الجنة فى النعيم والملك الدائم الابدى، ولكنا آثرنا ذكر هذه الآيات السابقة لانها تبين فعل الله ســـبحانه الاخير الدائم لعباده • انه العطاء اللانهـــائى كما وكيفا ، ولكن لا يعـــنى ذلك أن العطاء الالهى لا يكون الا فى الاخرة ، ذلك أن العطاء من الله منذ بدء الخلق، بيد أن العطاء فى الدنيا يختلف عن العطاء فى الاخـــرة بأن الاول محـــدود مجذوذ كما وكيفا ، فهو يعطى فى الدنيا لحكمة تختلف عن الحكمة التى يعطى من أجلها فى الاخرة • فبينما يعطى فى الاخرة لانه كريم جـــواد يعطى فى الدنيا تحقيقا للحكمة من خلقها وهى الابتلاء ومن ثم يعطى الخير لمن يريد الخير باختياره ، طلبا للاخرة ، ويعطى الشر لمن يريد الشر باختياره طلبـــا للدنيا (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشـــاء لمن نريد ثم جعلنا له

جهنم يصلاها مذموما مدحورا • ومن أراد الاخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا • كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا — الاسراء — ١٨—٢٠) •

فالحياة الدنيا تختلف عن الوجود الاخروى الخالد من حيث أنها مؤقتة وفانية ومليئة بالشر والظلم والالم ، مما يجعلنا تحت وقع سؤال ملح وحتمى وهو أنه اذا كان الله سبحانه وتعالى جواد عطاء واذا كان الله كما يخبرنا عن صفاته فى القرآن غنى لا تنفذ خزائنه ، قادر بل على كل شىء قدير ، رحيم رؤوف رحمن فلم جعل الاولى والاخرة ؟ ولم لم يخلق الانسان بادىء ذى بدء فى جنته الخالدة ، وعلاقته النهائية به حيث العطاء الدائم ؟•

ولكى نعرف اجابة هذا السؤال الهام ، ينبغى علينا أن نعود مرة ثانية لمعرفة صفاته والنظر اليها جميعا فى آن واحد اذا أردنا أن نعرف الحكمة التى من أجلها شاء الله أن يوجد الانسان فى دارين ، وما هى علة وجود الدار الاولى وغايتها التى تسير لتحقيقها ؟ •

ان الله سبحانه وتعالى يخبرنا أنه فعال لما يريد ، فمشيئته مطلقة ، وذلك حق • بيد أنه تعالى أيضا حكيم ، ومن ثم فانه اذا شاء شيئا ، فانما يشاؤه لحكمة • وقد علمنا الحكمة من الوجود المخلوق أوله وآخره اجمالا • فما الحكمة من وجود هذه الحياة الدنيا •

لقد شاء الله حقا أن يعطى لانه كريم ، ولكن لان الله عادل ، فقد شاء أن يكون عطاؤه قائما على العدل ، وذلك لان صفاته تعالى تفسر لنا خلقه كما أن خلقه سبحانه يهدينا الى صفاته • وهو سبحانه عندما يعطى بعض خلقه ملكا ونعيما ، فانما يملكه على البعض الاخر من خلقه ، ذلك لان الجنة بما فيها من أنهار وغرف وحور عين وفواكه وأشجار وما الى ذلك انما هى

خلق من خلق الله ، فلو خلق الله الانسان والجان وأسكنهما الجنة وسـخر لمتعهما بقية المخلوقات ، لتعارض ذلك الفعل مع صفة من صـفاته تعـالى ونعنى بها العدل • حقا ان الله فعال لمـا يريد ولاراد لمشيئته ولكنه تعالى لا يشاء الا ما هو حكيم من الافعال كما أنه لا يفعل الا ما هو عدل ، وقـد أخبرنا سبحانه فى الحديث القدسى (يا عبادى : انى حرمت الظـلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرما ، فلا تظالموا •••) •

ومن ثم عرض الله سبحانه الامانة على السماوات والارض والجبال ، أى أنه عرض عليهم الملك الخالد لمن يريده • الا أنه جعل الحصول على هذا الملك شرطا وهو الدخول فى مسابقة أو منافسة أو تجربة ابتلائية ينال الفائز فيها هذا الملك على أن يعذب فى جهنم اذا خسر المسابقة • لقـد شاء الله ألا يكون الحصول على هذا الملك العظيم الخالد الا بحمـل سر الخـلود ، أى النفخة الالهية الكريمة ، حيث هى المؤهل لذلك الملك الدائم ومن ثم عرضها على جميع المخلوقات فمن قابلها منهم صار انسانا كما مر بنا • وخلق لذلك الحياة الدنيا دارا للابتلاء يختبر فيها الانسان فاذا بدد الامانة حـرم من الملك الخالد بفقده لمؤهل ذلك الملك • واذا صانها وعاد بها كما هى استحقه جزاء من ربه عطاء حسابا •

ان كرم الله سبحانه استوجب منه العطاء الخالد وعدله استوجب منه اجراء الابتلاء بين من يريد دخول المسابقة • أى أنه خاق الخلق من أوله الى آخره بداريه لانه كريم ولكنه جعل الاخرة مترتبة على الاولى لانه عادل • فبعد له خلق النار ، لان المنافسة بين العباد والابتلاء لهم يستلزم أن يختلف

الناس (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لاملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين — هود ١١٨—١١٩) • أى أن الله خلقهم فى الدنيا للابتلاء مما يستلزم ألا يكونوا أمة واحدة وأن يكونوا مختلفين فريق مع الحق وفريق مع الباطل بأنواعه • ومن ثم خلق الله النار جزاء وفاقا لهم •

ان النار — كما يصورها لنا القرآن — أفضل دار للعذاب ، حيث جعلها الله بطبيعتها ونواميسها وطبيعة أهلها على أفضل وجه ممكن لتحقيق غايتها • فاذا بلت جلودهم بدلهم جلودا غيرها ، واذا جاعوا وتعذبوا بالجوع أطعمهم فى شجرة الزقوم ليتعذبوا أيضا بالشبع والا عطشوا وتعذبوا بالعطش ، سقاهم من ماء الحميم يغلى فى بطونهم ليتعذبوا بالسقاء ، وهم لا يموتون فيها ولا يحيون • لان الموت يريحهم من العذاب والحياة أفضل مما هم فية • ان الله سبحانه يخلق النار او الجنة او العالم او الشىء الجزئى — محققا كأفضل التحقيق — للحكمة التى خلق من أجلها الشىء ولذلك فان الجنة أفضل دار ممكنة للنعيم ، والنار أفضل دار ممكنة للعذاب •

وكذلك الحياة الدنيا لابد أن تكون أفضل دار ممكنة لتحقيق الغاية من وجودها والحكمة التى شاء الله ان يوجدها من أجلها •

ان الحكمة هى الابتلاء والحياة الدنيا بسماواتها وأرضها وما بينهما وبشرها وجنها هى أفضل دار ممكنة لتحقيق الابتلاء للانس والجن وليس ذلك تأويلامنا أو استنتاجا من كتاب الله ، ولكن ذلك ماتحدثنا به الآيات المحكمات

ان الحكمة القصوى والاخيرة من خلق الكون بعامة وخلق الاخرة بخاصة هى العطاء •

أما الحكمة الاولى من خلق الكون بعامة ، وخلق الحياة الدنيا بخاصة فهى الابتــلاء •

(وهو الذى خلق السماوات والارض فى ستة أيام وكان عرشه على المـــاء ، ليبلوكم أيكم أحسن عملا — هود — ٧) •

والانسان هو الكائن المبتلى الذى من أجله جعلت دار الابتلاء ابتداء (هل أتى على الانسان حين من الدهـــر لم يكن شيئا مـــذكورا انا خلقنـــا الانسان من نطفة امشاج نبتليه ، فجعلناه سميعا بصيرا — الانســـان — ١—٢) ومن ثم اتفقت غاية وجود السماوات والارض مع غاية الوجـــود الانسانى ، فجاءت كيفية الحياة فى الارض بالنسبة للبشر ولبقية الاحياء ، كما جاءت ماهيات الاشياء وقواميس العالم محققة لهذه الغاية •

فحقية الابتلاء حقيقة هامة من حقائق العقيدة الاسلامية • أغفالها يؤدى الى ظهور مشكلات وشبهات كثيرة فى نفس المسلم وذكرها يرفع كل الشبهات ويحل كل المشكلات وذلك لانها الحكمة التى خلق الله من أجلها كل شىء فى هذه الحياة الدنيا •

الايمـــان بالمـلائكة

(أ) تمهيـــد :

يقتضى الايمان بالغيب الايمان بالمـلائكة ، لانه لمـا كان الوجـود المخلوق غيبا وشهادة ، ولمـا كانت الاحداث والظواهر والتغيرات الطبيعية والحيوية البشرية تحدث بفعل الله وحده وبخلق الله وحده ولكن ليس بكلمة كن الالهية التى هى الاصل فى فعل الله تعالى (انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) وانما نقول : تتم هذه الامور فى الحياة الدنيـا بفعل الله وخلقه بيد أن فاعلية الله عز وجل يحجبها عنا سبحـانه وراء نوعين من العلل :

الاولى : هى العلل والاسباب الطبيعية التى يتعامل معها الناس تعاملا مباشرا حيث يريدون اكتساب أفعالهم ، فلابد من الدواء للشفاء والحرث للنماء ولابد لكل نتيجة من سبب ولكل معلول من عـلة فاذا أراد الانسـان المعلول عليه أن يحصل على العلة ، والعلوم التجريبية هى محاولة الانسان الكشف عن علل الظواهر والاحداث والاشياء ، ونقصد بها هنا العلل المادية المشـاهدة .

الثانية : هى العلل الغيبية . وهى الملائكة ذلك ان الله عز وجل جعـل لكل الظواهر والاحداث من احياء وأماتة ورزق وغـير ذلك عللا غيبية هى الملائكة فالاحياء يتم بأسبابه المـادية المعروفة لنا وبالملائكة والمـوت يتم بأسبابه المـادية المعروفة لنا بيولوجيا وفسيولوجيا وبالملائكة وكذلك المطر والانبات وكل ما يحدث فى الارض . فالملائكة جنـود الرحمن وسـفرته

ومنفذوا مشيئته فى الارض • وهم مكلفون بأعمال وانجــازات للمقــادير والاقدار فى الارض وفى حيــاة الناس الا أنهم ينزلون من السماء كل فيما يخصه ثم يعرجــون اليها ولذلك وجب علينا معــرفة عالم السماء أو عالم السماوات كما جاء الحبر عنها فى القرآن الكريم • كما يتحتم علينا أيضــا معرفة ما جاء فى القرآن الكريم والسنة عن أحوال الملائكة وما كلفهم الله به من أعمال والحكمة من اتخاذ الله الملائكة جنودا ينفذون أمــره فى الارض ، بالاضافة أيضا الى معرفة السماوات السبع والارضين السبع باعتبارهما عالم الملائكة •

(ب) الاعتقاد القرآنى الصحيح فى الملائكة :

جاء فى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال (خلقت الملائكة من نور العرش وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم ، والملائكة لايحصون عددا (وما يعلم جنود ربك الا هو ـــ ٣ المدثر) •

وهم ذوات حقيقية مخلوقين ككل شيء فى الكون بقدرة الله ومشيئته وقد ضل الناس وتفرقوا حول تصورهم للملائكة بنفس الاتجاهات والمذاهب التى سلكوها حين ضلوا حول مفهومهم لامور الغيب ولايات الصفات •

فوصف فريق من الجاهلين الملائكة بأنهم اناث وهذا تأويل لحقيقتهم بدون علم وقد رد الله عليهم التصور الجــاهلى فقــال تعــالى (ان الذين لا يؤمنون بالاخرة ليسمون الملائكة تسمية الانثى • وما لهم به من علم ان يتبعون الا الظن ان الظن لا يغنى من الحق شيئا ـــ ٢٧ـــ٢٨ النجم) •

ومن الانحرافات التى تصيب عقيدة الناس فى الملائكة اتخاذهم أربابا

من دون الله وقولهم انهم شفعاء عند الله يتقربون بهم اليه وقد نقض الله عز وجل هذا التصور بقوله تعالى (وكم من ملك فى السماوات لا تغنى شفاعتهم شيئا الا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى — ٢٦ — النجم) كماقال بعض مشركى مكةأيضا أن الملائكة بنات الله فرد عليهم عز وجل بقوله (أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة اناثا انكم لتقولون قولا عظيما — ٤٠ — الاسراء) وفيمن عبدوا كائنات غيبية كالملائكة والجن أو فى الذين عبدوا الجن وهم يحسبون أنهم ذوات علوية ملائكية قال تعالى مبينا مصيرهم فى الاخرة (ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ٤٠—٤١ سبأ) •

كما جاء على قوله ردا على من عبدوا الملائكة كالصابئة (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون • ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد اذ أأنتم مسلمون — ٧٩—٨٠ آل عمران) •

أما الفريق الاخر فى تصور الملائكة فهم المعطلة الذين يؤولون الايات ويصرفون اللفظ عن دلالته اللغوية الى معنى آخر لا يحتمله • فقالوا ان الملائكة ليسوا ذواتا بل هى دلالة على قوى الخير النافعة للانسان فى الكون والطبيعة كما أن الشياطين ليست ذواتا حقيقية بل هى دلالة على القوى المعاكسة والمناهضة لخير الانسان والاحياء فى الكون والطبيعة وهؤلاء مخالفون للمفهوم القرآنى الخالص للملائكة •

الملائكة فى القرآن الكريم :

الملائكة ذوات نورانية من مخلوقات الله عز وجل عقلاء كرماء جنود الله لا يعصونه ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون (•• لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) فهم ليسوا مختارين فى أفعالهم وليس لهم ارادة حرة أو مشيئة مستقلة عن مشيئة الله عز وجل •

ويختلفون عن الانس والجن فى أنهم لم يخلقوا للابتلاء ، الحكمة التى من أجلها خلق الله عز وجل والانس والجن • أما الحكمة من خلق الملائكة فهم يعبدون الله ويسبحونه ويسجدون له ولهم تكليف خاص بهم يختلف عن تكليف الانس والجن ، حيث أن تكليف الانس والجن — وان كان فى وسع كل نفس — الا أنه مخالف للهوى والفجور الذى فى طبيعة الانس والجن ، أما تكليف الملائكة فهو ليس للابتلاء ومن ثم فهو بالنسبة لهم كالتنفس والاكل والشرب بالنسبة للانسان • ومن ثم فالملائكة لا تثاب على طاعتها لله عز وجل بعكس الانس والجن • لان المطيع لله من الانسان والجن مخالف ومجاهد للفجور والهوى فى نفسه والعاصى لله عز وجل منهما مغالب للتقوى التى جعلها الله فى نفسه • بينما طاعة الملائكة بمقتضى الخلقة والجبلة (فهم يطيعون الله لانهم لا يستطيعون المعصية •

والعلاقة بين الملائكة والانسان تتضح من آيات الخلافة وأمر الله للملائكة بالسجود لادم وكان مع الملائكة الجن ممثلين فى ابليس وسجود

الملائكة يعنى اقرارهم بأفضلية الانسان • فالانســية أكرم فى الدرجــة الوجودية من الملائكية بمقتضى السجود ولكن لا يجوز القــول بأن فــردا بعينه من الناس أفضل من ملاك بعينه لكن الانسان كنوع من المخــلوقات العاقلة أفضل عند الله من الملاك أى أن الانسية أفضل من المــلائكية وبذلك يكون سيد البشر أفضل من المقدم فى الملائكة كجبريل مثلا لكن جبريل يكون أفضل من كثير من الناس لبعدهم عن الطاعة •

وسجود الملائة يتضمن اقرارهم بخلافته وبعنى ان الملائكة بأمر الله أعوانا للانسان ومسخرين بأمر الله لحياته ولنفاذ أمر الله وقدره ولابتلائه وهذه هى المهام التى كلف الله بها الملائكه : —

١ — الرسالة والوحى : فهم رسل اللل عز وجل الى الرسل والانبياء كلمة ملاك لغة هوالملاك (بيسكون اللام وفتح الهمزة)اى الرسالة ولاك (بفتح اللام والهمزة) أى أرسل والملائكه رسل اللــه الى النــاس جميعا ليس بالوحى ولكن بالالهام وجاء فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ان للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فايعاز بالشر وتكذيب بالحق واما لمة الملك فايعاز بالخير وتصديق بالحق •)واما لمة الملك فايعاز بالخير وتصديق بالحق لــا له من الملك وله من الشيطان فاما له) •

وهم رسله عز وجل اى الصالحين والصالحات من الناس كالصديقين والصديقات (إذ قالت الملائكة يامريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين — ٤٢ — آل عمران) اما الوحى فهو خاص بالرســل وهو جبريل عليه السلام وآدلة نلك كثيرة تأخذ منها قوله تعالى (انه لقول رسول كريم ، ذى قــوة عنــد ذى العــرش مكين مطاع ثم أمين — ٢١ التكرير) وقال تعالى(نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين —١٩٢—١٩٣— الشعراء وقال تعالى(قل من كان عدوا لجبريل فانه نزلهعلى

قلبك باذن الله مصدقا لما بين يدية وهدى وبشرى للمؤمنين ٩٧ — البقرة)
فجبريل رسول الله وسفيره الى رسله وأنبيائه ومبلغهم كتبه وكلامه •

٢ — نفـخ الارواح فى الاجنة :

جاء فى الحديث الشريف (•••• ثم يرسل الله اليه الملك فينفخ فيـه الروح •••) رواه الشيخان •

٣ — تنفيذ قدر الله بالفحفظ •

حيث يتعاقب على الانسان لحفظه بالليل وحفظه بالنهار •

وقال تعالى (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من امـر الله — ١١ الرعد)

وقال تعالى (وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظه — ٦١ — الانعام) وقال تعالى (ان كل نفس لما عليها حافظ — ٤ —الطارق)

٤ — مراقبة افعال الانسان وتسجيلها •

قال تعالى (وان عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون—١٠ ١١،١٢ — الانفطار) وقال تعالى(ام يحسبون انا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون — ٨٠ الزخرف) وقال تعالى (اذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفـظ من قـول الالديه رقيب عتيد — ١٧ ، ١٨ —ق)

٥ — تنفيذ قدر الله بالموت :

قال تعالى (قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثـم الى ربكـم

ترجعون — ١١ — السجدة) وقال تعالى (حتى اذا جاء احدهم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون — ٦١ — الانعام

٦ — الحساب والعذاب فى القبر :

قال تعالى (ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم ، قالوا كنا مستضعفين فى الارض — ٩٧ — النساء) وقال تعالى (ولو ترى اذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وادبارهم وذوقوا عذاب الحريق — ٥٠ — الانفال

٧ — تعذيب الكافرين فى النار • :

خازن النار هو ملك هو مالك واعوانه ملائكه ايضا قال تعالى (ان المجرمين فى عذاب جهنم خالدون لا يفترعنهم فيه مبلسون وماظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال انكم ماكثون ٧٤ — ٧٧ — الزخرف)

وقال تعالى فى ملائكة العذاب فى جهنم (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون — ٦ التحريم) • وقال تعالى عن عدد ملائكة العذاب فى النار (وما أدراك ما سقر لا تبقى ولا تذر لواحة للبشر عليها تسعة عشر وما جعلنا أصحاب النار الا ملائكة وما جعلنا عدتهم الا فتنة للدين كفروا — ٢٧—٣٠ المدثر) •

٨ — تهنئة وتبشير المؤمنين عند الموت وطمأنتهم على مصيرهم الاخروى •

قال تعالى (الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا

وفى الاخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ــ ٦٤،٦٣ يونس) •
وقال تعالى (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليــكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعلمون ــ ٣٢ ــ النحل) عند الموت يقولون لهم « ســلام عليكم » وفى الاخرة يقولون لهم « ادخلوا الجنة » •

ومثلها قوله تعالى (ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ــ ٣٠ ــ فصلت) •

٩ ــ أوليــاء المؤمنين :

ويستغفرون لهم قال تعالى مخبرا عن قول الملائكة المبشرين للمؤمنين (نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الاخرة ــ ٣١ ــ فصلت) •

وقال تعالى (تكاد السموات يتفطرن من فوقهن • والملائكة يسبحون بحمد زبهم ويستغفرون لمن فى الارض الا أن الله هو الغفور الرحيم ــ ٥ ــ الشــورى) •

وقال تعالى (هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور ــ ٤٣ ــ الاحزاب) •

١٠ ــ استقبال المؤمنين فى الجنــة وتهنئتهم وولايتهم للمؤمنين فى الاخــرة •

قال تعالى (نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الاخرة ــ٣١ ــفصلت)
وقال تعالى (جنات عدن يدخلونها ومن صــلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، ســلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ــ ٢٤،٢٣ ــ الرعد) •

١١ — القتال مع المؤمنين المجاهدين فى الدنيا :

قال تعالى (ولقد نصركم الله وانتم اذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون اذ تقول للمؤمنين الن يكفيكم ان يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين — ١٢٣ — ١٢٤ آل عمران) •

وقال تعالى (اذا يوحى ربك للملائكة انى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضرربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان — ١٢ الانفال) •

١٢ — تدبير شئون الانسان بخاصة والمخلوقات بعامة فى الارض وتنفيذ أقدار الله فى الخلق :

قال تعالى (والنازعات غرقا) هم الملائكة ينزعون نفوس الكفار نزعا شديدا • (والناشطات شطا) الملائكة تسل نفوس المؤمنين برفق (والسابحات سبحا) ملائكة تنزل من السماء الى الارض كأنهم يسبحون فى نزولهم (فالسابقات سبقا) ملائكة تسبق بأرواح المؤمنين الى الجنة (فالمدبرات أمرا) ملائكة تدبر امور الدنيا أى تنزل بأقدار مكتوبة « لتدبير تنفيذها وهذا يعنى أن الملائكة بمثابة » الاسباب والعلل لا يتم أمر ولا شيء ولا حدث الا بها كما لا يتم أمر ولا شيء ولا حدث الا بعلله الطبيعية والكل مخلوق لله عز وجل •

فعل الله بالملائكة والحكمة منه :

ليس للملائكة فعل مستقل فالفعل فعل الله والخلق خلق الله وليسوا شركاء الله فى فعله عز وجل لان الفعل ينسب الى فاعله اذا صدر منه بارادته

وقدرته وعلمه ، وما تقوم به الملائكة انما هو بعلمه وارادته عز وجل وقدرته باعتبار أن الملائكة جنود للرحمن وعلى ذلك فليس للملائكة ارادة مستقلة يفعلون بمقتضاها بل تصدر عنهم هذه الافعال بأمر الله وبعلمه وقدرته ولذلك نجد أن الله عز وجل ينسب لنفسه الاحياء والاماتة وفعل كل شىء ومع ذلك فهو يخبرنا أن الذى يتوفى الانسان هو ملك الموت وذلك لان الوفاة تتم بأمر الله وبقدره وبعلمه وليس للملائكة فى هذا الفعل مقوما من مقومات الفعل يجعله منسوبا اليهم •

كذلك يجب أن نعلم ونؤمن أن الملائكة لا تملك للانسان نفعا ولا ضرا ولا يجوز للانسان أن يدعوها أو يطلب منها نفعا أو دفع ضر لانهم لن يستجيبوا لدعائه حيث لا يستطيعون الاستجابة والطاعة والتنفيذ الا لاوامر الله عز وجل لهم ، ومن ثم فالدعاء يكون لله وحده والله أخبرنا أنه لا يقبل شفاعة الملاك أو غيره الا لمن يأذن له بالتشفع فى أمر محدود كاذنه للملائكة بالاستغفار لمن فى الارض فالخلق كله لله والفعل كله لله والامر كله لله وحده •

كذلك لا يستتبع قيام الملائكة بتنفيذ اقدار الله فى العباد ان الله عز وجل لا يفعل الا بهم بل ان الله هو القوى العزيز الجبار وهو على كل شىء قدير فقدرته اذن مطلقة كما أن مشيئته مطلقة • وهذا يعنى انه قادر على فعل الشىء الواحد أو خلق المخلوق الواحد أو احداث الحدث الواحد بأكثر من كيفية للاحداث والفعل • أى أن الله عز وجل يفعل ما يشاء ويخلق ما يشاء كيف يشاء فهو ليس مقيدا فى فعله وخلقه بكيفية محددة •

والاصل فى فعله تعالى (انه يقول للشىء كن فيكون • والاستثناء انه يفعل بالملائكة وبالعلل الطبيعية فى الارض وقد يشاء سبحانه وتعالى أن

يكون فعله بمقتضى هذه السنن تنفيذا للحكمة التى من أجلها خلق الانسان والسماوات والارض وكل شىء فى هذه الحياة الدنيا وهى الابتــلاء حيث شاء أن يبتلى الانس والجن ليميز بين المؤمنين والكافرين والمنافقين ليدخل هؤلاء الجنة برحمته ويدخل أولئك النار عن بينة بعدله .

وتقتضى حقيقة الابتلاء حجب القدرة الالهية والفاعلية الالهية فحجبها عز وجل خلف نوعين من حجب الفاعلية :

النوع الاول : العلل الغيبية وهم الملائكة .

النوع الثانى : العلل الطبيعية وهى الاســباب الطبيعية التى أعطى الله للانسان قدرا من التحكم فيها .

وذلك حتى يتحقق ابتلاء الناس فى الارض لان الانسان اذا شاهــد الاحداث تحدث بكلمة كن دون احتجاب لما كفر أحد أو أشرك أحد ولما كان ثمة حق وجزاء لمحسن فى احسانه ولمــا أصبح الانسان حرا مختار صالحا للابتلاء ولمــا أصبحت الدنيا صالحة للابتلاء .

ومن ثم شاء الله عز وجــل أن يكون فعـــله فينا بالمــلائكة وبالسنن الطبيعية الا أن الموحد يؤمن أن الله هو الخالق للعلة والمعلول وأن الخلق لله وحده والفعل لله وحده ولا يتم شىء ولا حــدث ولا خلق الا بأمــره وعلمه وخلقــه .

تصور العالمين فى الاســلام :

يختلف تصور العالم فى الاسلام عن تصور العالم عند الماديين اختلافا جذريا ، فالمــاديون يقررون أن الكون كله يتمثل فى العالم المحسوس المرئى، ومن ثم فهو عندهم يتمثل فى الفضاء الكونى بما فيه من مجرات وأجــرام

سماوية وبما فى ذلك الارض وما عليها • واذا سألنا الماديين عن الوجــود خارج الفضاء الكونى فانهم يعجزون عن الاجابة ، مــع العلم أن العقــل البشرى لا يستطيع تصور العدم أو هو يرفض تصور العــدم •

أما التصور الاسلامى للكون فهو يقوم على أساس رفض فكرة أحدية العالم ويقرر تعدد العــوالم فى الكون المخــلوق يدل على ذلك أن كلمــة « العالم » لم ترد فى القرآن الكريم مرة واحدة بصيغة المفــرد بل وردت دائما بصيغة الجمع كقوله تعالى « الحمد لله رب العالمين » • فالقرآن الكريم يحدثنا دائما عن عوالم متعددة وليس عالمــا واحدا •

ويثبت القرآن الكريم نوعين من العوالم • فهى متعــددة وكثيرة من حيث العدد ولكنها اثنتان فقط فى النوع هما : عالم الغيب وعالم الشهادة قال تعالى (أ لم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب •• آية ١ـ٣ سورة البقرة) أى الذين يؤمنــون بوجــود عــوالم وكائنات غائبة عنهم ، كالملائكة والجن والروح والسماوات العلا والجنــة والنار واليوم الاخر • فالغيبيات منها ما هو كائن الان ومنها ما سيقــع فى المستقبل •

أما عالم الشهادة فهو العالم المحسوس الذى نعيش فيه ، ويتمثل فى الفضاء الكونى وكل ما هو مادى محسوس على الارض وتحت الثرى • فهو اذن عالم مشهود للانسان بما فى ذلك النجوم والاجرام السماوية •

فتقسيم الكائنات الى غيب وشهادة هو بالنسبة للانسان ولكل الكائنات حتى الملائكة ، أى أنهم سواء أهل السماء الســابعة منهم أم أهــل السماء الثانية هناك ما هو غائب عنهم وهناك ما هو مشهود لهم • ومن ثم فليس فى الوجود سوى الله عز وجل الذى يعلم كل شىء ويعلوا على كل شىء فليس

بالنسبة الى علمه غيب أو شهادة (عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال آية ٩ سورة الرعد) •

والان اذا كانت العوالم متعددة فكم عددها ؟ وكيف نتصور كل منها فى ذاته ؟ وكيف نتصور العلاقة بين كل عالم والاخر ؟ وما هو الغائب منها وما هو المشهود بالنسبة لنا وبالنسبة لغيرنا ؟

قال تعالى (ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا آية ١٥ــ١٦ سورة نوح) فالعوالم سبع ذلك أن كل سماء عالم مستقل وما سميت هذه العوالم سماوات الا لانهـا تعلوا رأس الانسان الذى يخاطبه الله بالقرآن الكريم ، دليل ذلك أن الله عز وجل يصفها بأنها أبنية مشيدة عظيمة هائلة بقوله تعالى (وبنينا فوقكم سبعا شدادا ــ ١٢ سورة النبأ) •

وحسب المفهوم البشرى والدلالة اللفظية لكلمة أرض فى العربية وهى تعنى ما تسفل أو ما تحت قدم المخلوق وكذلك حسب الدلالة اللفظية لكلمة سماء فى العربية وهى كل ما علا رأس المخلوق يكون مفهوم العالم محــددا بأرض وسماء ويعيش على الارض مخلوقات ويستظلون بهذه السماء • قال تعالى (••• الذى جعل لكل الارض فراشا والسماء بناء •• آية ٢٢ سورة البقرة) وحيث قد أثبت القرآن سبع سماوات فانه أيضا قد أثبت فى الكون المخلوق سبع أرضين حيث تلحق بكل سماء أرضها •

قال تعالى (الله الذى خلق ســبع سماوات ومن الارض مثلهن يتنزل الامر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء علما ــ آية ١٢ سورة الطلاق) والمثلية القائمة بين الارضين والسماوات هى مثلية فى العدد وهى مثلية فى الشكل فكما أن السماوات السبع وصفها

الله بأنها طباقا فيمكن أن نتصور الارضية بأنها طباقا ويؤكد المثلية فى العدد فأورد فى أكثر من حديث عن ذكر الارضين السبع •

فالكون المخلوق سبع عوالم كل عالم مكون من سماء وأرض ويعيش على الارض خلق لله عز وجل ، يؤكد هذا التصور ويوضحه دعاء الرسول ﷺ المأثور (اللهم رب السماوات وما أظللن ورب الارضين وما أقللن •••) أى بين السماوات السبع والارضين السبع وهذا الامر الالهى يتنزل على مخلوقات التى تعيش فوق الارضين • وما يثبت ويؤكد أن كل سماء وأرض يكونان عالما مستقلا بما تظلله السماء ونقله الارض من مخلوقات خاصة بهذا العالم قول الله عز وجل (فقضاهن سبع سماوات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم — آية ١٢ سورة فصلت) فقوله تعالى « وأوحى فى كل سماء أمرها » أى ناموسها وقانونها وطبيعتها وطبيعة الخلق فيها والحكمة من وجودها والمهام الموكولة لكل مخلوق فيها • ودليل ذلك أنه بين لنا السماء الدنيا ومهمة النجوم فيها انها مصابيح وحفظا • وعلى ذلك فكل سماء وأرض عالم مستقل لاستقلال كل سماء وأرض بطبيعة وناموس وقوانين خاصة تختلف عن السماء التى فوقها والتى تحتها •

وعالم الشهادة الخاص ببنى البشر هو السماء الدنيا ، وقد سميت كذالك ، اما لانها السماء الادنى بمعنى الاقرب بالنسبة لنا ، واما لانها الاقل حجما من السماوات الست أو العوالم الست التى تعلوها •

فالسماء الدنيا هى التى عند الفلكيين الفضاء الكونى الملىء بالاجرام السماوية والتى يعجز العقل البشرى — حسب نتائج علم الفلك الحديث — عن تصور أو حتى تخيل اتساعه حيث تسبح فيه أشعة النجوم البعيدة بسرعة الضوء لمدى آلاف الملايين من السنين • هذه السماء الدنيا هى

أصغر وأدنى وأقل السماوات فى الحجم والعظم وهى بالنسبة لنا نحن البشر بالاضافة الى الارض التى تقلنا عالم الشهادة .

أما السماوات الست من الثانية حتى السماء السابعة فهى بالنسبة لنا عالم الغيب . حيث أنها جميعا لا تقع تحت الحس البشرى ولا يمكننا أن نعلم من طبيعتها أو مادتها أو أهلها أو نواميسها شيئا يذكر الا ما يأتينا به الوحى .

وأهل هذه السماوات الست هم الملائكة . ولما كانت كل سماء عالم مستقل عن التى فوقها والتى تحتها ، اختلفت خلقة الملائكة من سماء الى سماء ، قال تعالى (الحمد لله فاطر السماوات والارض جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء ، ان الله على كل شىء قدير — آية ١ سورة فاطر) . فأهل كل سماء من السماوات الست بطبيعة وخلقة مختلفة عن السماوات الخمس الاخرى .

وعالم الشهادة بالنسبة لاهل السماء الثانية يتمثل فى عالمهم أى السماء الثانية وأرضهم بالاضافة الى السماء الدنيا التى تحتهم فهم مستطيعون على النزول الى السماء الدنيا . ولكنهم لا يستطيعون الصعود الى السماء الثالثة التى تعلوهم ، ومن ثم فعالم الغيب بالنسبة لهم هو السماوات الخمس التى فوقهم وما فوق السماء السابعة ، وكذا الامر بالنسبة لاهل السماء الثالثة يكون عالم الشهادة بالنسبة لهم هو سماءهم وأرضهم والسماء الثانية والسماء الدنيا وما فوقهم هو عالم الغيب ، وهكذا ، حتى نجد أن عالم الغيب بالنسبة لاهل السماء السابعة هو ما فوق السماء السابعة (الكرسى والعرش) بينما يعتبر عالم الشهادة بالنسبة لهم هو السماوات السبع ، ولذلك فأهل السماء السابعة من الملائكة مستطيعون النزول بين

السماوات وحتى السماء الدنيا ، كما هو الامر بالنسبة لجبريل عليه السلام الذى كان ينزل الى السماء الدنيا ولكنه لم يستطع الصعود الى ما بعد السماء السابعة كما حدث فى ليلة المعراج حيث لم يستطع الصعود مع رسول الله ﷺ •

ومن ثم فكل المخلوقات بما فى ذلك أهل السماء السابعة عندهم غيب وشهادة ولا يوجد أحد سوى الله هو عالم الغيب والشهادة ولذلك وصف الله نفسه مع هذه الصفة بقوله « الكبير المتعال » فهو المتعال فوق كل شىء ومن ثم فهو يعلم كل شىء ولا يغيب عنه شىء •

يبقى بعد ذلك السؤال عن علاقة السماوات بعضها ببعض قال تعالى « سبع سماوات طباقا » فاذا علمنا أن الشىء يكون مطبقا على الشىء اذا كان محيطا به من جميع الجوانب تعطينا هذه الكلمة تصورا للسماوات باعتبارها عوالم كرية هائلة تحيط السماء السابعة بالسماوات الست وتحيط السماء السادسة بالسماوات الخمس وتطبق السماء الخامسة أيضا بالسموات الاربع وهكذا حتى نصل الى السماء الثانية تحيط بالسماء الدنيا التى ليس تحتها سماء •

فاذا تذكرنا أن السماء الدنيا كون هائل يعجز الانسان عن تدوين اتساعه فى أرقام عددية فما بالنا بالسماء السابعة ؟

والسؤال الذى يطرح نفسه علينا الان هو ماذا بعد السماء السابعة ؟ قال تعالى (••• وسع كرسيه السماوات والارض ••• آية ٢٥٥ سورة البقرة) • ومعنى هذا أن السماوات السبع والارضين السبع فى الكرسى حيث أن الكرسى يسعها وقد حدد رسول الله ﷺ النسبة بين السماوات السبع وبين الكرسى بقوله لابى ذر (ما السماوات السبع فى

الكرسى الا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهراتى فلاه من الارض — تفسير ابن كثير لاية الكرسى) •

ومن ثم تصبح هذه السماوات السبع فى ملك الله العظيم شيئا ضئيلا صغيرا وهو عز وجل قادر على أن يخلق مثلها أضعافا مضاعفة ، وبذلك يستقيم فى أذهاننا معنى قوله تعالى (••• وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والارض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله آية ٢١ سورة الحديد) •

وقوله تعالى (وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين آية ١٣٣ آل عمران) ان فى ملك الله متسع ويزيد لان ينشىء الله عز وجل لكل تقى جنة عرضها السماوات بل أربع جنان ، وأن ينشىء لكل مؤمن بالله ورسله جنة عرضها كعرض السماء •

واذا تساءلنا ماذا بعد الكرسى جاءت الاجابة القرآنية العرش (••• الرحمن على العرش استوى — آية ٥ سورة طه) ويرجح ابن كثير أن الكرسى غير العرش ويذكر من الاخبار ما يدل على أن الكرسى فى العرش وان فضل العرش على الكرسى كفضل الفلاة على الحلقة الملقاة فيه •

واستواء الله عز وجل على العرش يفيد أنه بائن عن خلقه غير حال ولا متحد بالخلق فهو بذاته فوق العرش ولكنه مع المخلوقات بعلمه وهيمنته وسمعه وبصره وقدرته وكل صفاته العلية • ويفيد الاستواء أيضا أن الله عز وجل متعال عن الخلق فهو محتجب بذاته عنهم وحجابه النور أو النار كما جاء فى حديث صحيح (••• حجابه النور أو النار لو كشفه لاحرقت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه •• صحيح مسلم) وسبحان الله العظيم • ان السماوات والارض وكل المخلوقات متداعية فى كل لحظة

نحو الفناء • فالاصل فيها جميعا الفناء والزوال • وهى باقية لان الله عـز وجل يمسك عنها الزوال والفناء ويمدها بالوجود والاستمرار فيه كل لحظة فهو قيوم السماوات والارض جل وعلا ولولا ذلك لزالت قال تعالى (ان الله يمسك السماوات والارض أن تزولا ولئن زالتا أن أمسكهما من أحد من بعده أنه كان حليما غفورا • آية ٤١ سورة فاطر) •

ان الله هو الموجود الحق وما سواه باطل ، لولا ارادة الله فى بقاء الشىء موجودا ، فمهما عظم هذا الشىء المخلوق ، لمـا بقى ولزال على الفور •

ان الله عز وجل باق بذاته اماما سواه فهو باق بابقاء الله عز وجل له ، لان الاصل فيما سواه العدم والوجود بما رضى له وهكذا يمكن أن نفهم من معانى لا اله الا الله أنه لا موجود بحق الا الله سبحانه وتعالى •

اليـــوم الآخـــر

(١) أهمية الايمان باليوم الآخر فى العقيدة الاسلامية :

أحد أصول الايمـــان فى الاســـلام والكفر به كفـــر مخلد فى النار ، ولا يغنى العبد الايمان بالله واحدا لا شريك له اذا كفر باليوم الاخر .

لقد قرن الله عز وجل بين الايمان به والايمان باليوم الاخر فى ثمان وعشرين آية فى كتابه الكريم فى مثـــل قـــوله تعالى (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغـــرب ولكن البر من آمن بالله واليـــوم الاخـــر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المـــال على حبه ذوى القـــربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وفى الرقاب ..... — ١٧٧ — البقرة) .

وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا بالله ورســـوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبـــل ومن يكفر بالله ومـــلائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر فقد ضل ضلالا بعيدا ١٣٦ — النساء) .

كما جاء الايمان بالاخرة فى القرآن فى مائة وخمس عشرة آية بعضها يدل على أن الايمان بالاخرة أصل من أصول الايمان واليقين بالاخرة صفة للمتقين مثل قوله تعالى (ألم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالاخرة هم يوقنون ١—٤ البقرة) .

وجاءت الاخرة فى مواضع كثيرة مقابلة للدنيا ومقـــابلة للاولى أى الحياة الدنيا باعتبار أن الانسان مخير بين الحياتين فى ابتـــلائه فأما أن يضحى بالاخرة ليعيش وفق هواه فى الدنيا فيشقى فى الدنيا والاخرة واما يسعى لاخرته ولو يضحى بحياته وماله وعمره فى الدنيا ليسعد ويعـــز فى

الدنيا والاخرة قال الله عز وجل عن الكثرة من بنى اسرائيل (أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالاخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون ٨٦ البقــرة) •

وقال أيضا عن الكافرين الذين يخسرون الدنيا والاخرة بسبب بيعهم الاخرة الباقية بالدنيا الفانية (فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والاخــرة ٢١٧ البقرة) وقال أيضا عنهم (لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الاخرة عذاب عظيم ١٤١ المــائدة) أما المؤمنون فقــد قال الله عنهم (لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الاخرة ٦٤ يونس) •

كذلك ربط الله عز وجل فى القرآن بين صلاح الدنيا والايمان بالاخرة بدليل قوله تعالى (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الاخر والمــلائكة والكتاب والنبيين وآتى المــال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والســائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساة والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون • ١٧٧ ــ البقرة) •

فبين سبحانه أن أساس البر والخير والصلاح الخلــقى والنفسى والاقتصادى فى المجتمع البشرى هو الايمان بالله واليوم الاخر والمــلائكة والكتب والرسل •

وبالتالى يكون الكفر بالله وباليوم الاخر أيضا هو أســاس الفســاد السياسى والاقتصادى والنفسى والخلقى فى الارض •

قال تعالى فى وصف أفعال الكافرين وتأسيس هذه الافعال على الكفر باليوم الاخر (الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالاخــرة

كافرون ٤٥ الاعــراف) فبين سـبحانه وتعـالى فى الاية أن الـكافرين بالاخـرة يصـدون عـن سـبيل الله أى منهـج الحيـاة المحقـق للخـير والسـعادة فى الدنيـا والاخـرة وهـو يقـوم على الايمان بالله واليـوم الاخر وهم يؤسون مناهـج حياتهم على أسـاس أهداف وغايات دنيوية محضة أى على أساس كفرهم بالآخـرة فيبغونها عوجا ويفسدون فى الارض .

ان الكفر باليوم احد المعالم الرئيسية للعقائد المادية التى تقوم عليها الحضارة الغربية المعاصرة .

فأهل هذه الضارة الذين يدينون بالعقائد منهم يختلفون عن المسلمين اختلافا جذريا فى عقيدتهم بسبب الكفر باليوم الآخر .

ان هذا يبدو لنا واضحا فى الاختـلاف بين اجابة الاسـلام واجابة العقائد المـادية على السؤال التالى :ـ

متى يبدأ وجود الانسان ومتى ينتهى هذا الوجود ؟

ان الاجابة على السؤال هى أحد الاختلاف الجوهرية بين الاديان السماوية بعامة والدين الاسلامى بخاصة من جهة وبين العقائد والاتجاهات المادية من جهة أخرى . وذلك لان العفيدة فى الاديان البماوية تقوم على الايمانبالغيب وهو يقتضى الايمان باليوم الآخر ، بيما ينكر الماديون وجود اليوم الاخر واستمرار الوجود الابدى للانسان فى دار الخـلود ، ومن ثم جاءت اجابتهم على النحو التالى :

ان وجود الانسان يبدأ بميلاده ، أو على أبعد تقدير منذ بدء تكونه كجنين فى رحم أمه ، وينتهى هذا الوجود بموته حيث يتحلل الميت ويعود الى مواده التى تكون منها جسده من قبل ومن ثم يصبح الانسـان الفرد ـ بعد موته ـ عدما أو بتعبير آخر يصبح لا شىء .

وجدير بالذكر أن المـــاديين (ونعنى بهم فى عصرنا هذا : الماركسيين والملاحدة والوجوديين والعلمانيين وغيرهم من أصحاب الفلسفات والعقائد المنكرة للغيبيات) ليسوا أصحاب عقيدة حـــديثة كما يظن البعـــض بل أن عقيدتهم قديمة قدم الكفر والشر فى البشرية وكان منهم الدهريين الذين عاشوا قبل الاسلام فى جزيرة العـــرب حيث كانوا يعللون الحياة بقـــول قائلهم : ان هى الا أرحام تدفع وأرض تبلع وقد عبر القـــرآن الكريم عن عقيدتهم بقولهم (ان هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين آية ٣٧ سورة المؤمنين) وقال تعالى أيضا (وقالوا ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون — آية ٢٤ سورة الجاثية) •

تلك هى الاجابة المادية قديما وحديثا بالنسبة لهـــذا الســـؤال ، أما بالنسبة للاجابة الاسلامية فانها تختلف كليا وجذريا عن اجابة المـــاديين الســـابق ذكرها •

وقبل محاولة استخلاص هذه الاجابة من القرآن الكريم ، يجدر بنا أن نفرق أولا بين مفهوم كل من الوجود والعدم من جهة ، وبين مفهوم كل من الحياة والموت من جهة أخرى ذلك أن الوجود هو نقيض العدم وليس الوجود نقيض الموت • كما أن المـــوت نقيض الحياة ، ولا يعتبر العـــدم نقيضـــها •

فاذا تذكرنا أن السؤال عن بدء وانتهاء وجود الانسان وليس عن بدء وانتهاء حياته فاننا نكون قد أزلنا لبســـا عن الاذهان يقـــع فيه كثير من النـــاس •

يقدم لنا القرآن الكريم الاجابة على هذا السؤال والتى تحدد علاقة الانسان بالزمان بآيتين كريمتين : يقول المولى عز وجل فى الاولى :

كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون آية ٢٨ سورة البقرة) وفيها يخبرنا الله عز وجل أن الانسان يمر عبر عدة مراحل وجودية :

الاولى : وصف فيها الله الانسان بأنه كان موجودا فى حالة موت ، وذلك حين قال : « وكنتم أمواتا » لان فعل الكينونة بصيغة الماضى « كنتم » يفيد وجودا سابقا للانسان على وجوده الحالى ، ولان العدم أيضا هو نفى للكون أو للوجود ، وقد أثبت الله العدم للانسان قبل خلقه فى حالة الموتة الوجودية الاولى فقال (هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا •• ؟ (سورة النساء) فقوله تعالى « لم يكن شيئا مذكورا » نفى لوجود الانسان قبل خلقه • ومعنى ذلك أن الله عز وجل لم يخلق الانسان حيا أولا وانما خلقه ميتا أو على صورة موت أو فى حالة موت ثم أحياه من بعد الموت فقال « فكنتم أمواتا فأحياكم » أى هذه الحياة التى نحياها الان ، وعلى ذلك فالحياة التى نحياها الان هى المرحلة الوجودية الثانية ، وليست المرحلة الوجودية الاولى أى أن الموت يسبق الحياة ، وليس كما يظن كثير من الناس يدل على ذلك ويؤكده أن الموت والحياة لم يجتمع ذكرهما فى آية الا جاء الموت أولا ، كما يدل ذلك قوله تعالى صراحة بما يفيد خلق الموت قبل خلق الحياة (تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور ـــ آية ١، ٢ سورة الملك) •

فالمراحل الوجودية للانسان اذن موت ثم حياة ثم موت « ثم يميتكم» فالمرحلة الثالثة هى الموتة الثانية ، وهذه الحالة التى ينتقل اليها الانسان هى وجود برزخى حيث لا يكون الانسان فى الدنيا كما لا يكون فى الاخرة

وهى بلا شك حالة وجودية وليست عدما وقد أسماها الله موتا مما يدل على أن الموت الاول الذى خلق الله عليه الانسان هو وجود وليس عدما •

بعد ذلك تأتى المرحلة الوجودية الرابعة « ثم يحييكم » وهى الحياة الثانية أو بداية الحياة الاخرة • ثم بعد ذلك الرجوع الى الله عز وجل للحساب ثم الخلود فى الجنة أو الخلود فى النار فالانسان اذن منذ خلقه يجتاز ويعبر هذه المراحل الوجودية المتمثلة فى موتين وحياتين قال تعالى فى الاية الكريمة الثانية التى تجيب على سؤالنا الرئيسى (قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل الى خروج من سبيل ؟ آية ١١ سورة غافر) وهذه مقالة أهل النار يستعرضون فيها المراحل الوجودية التى عبروها فيجدونها أربع موتين وحياتين الموت يسبق فيها الحياة وكأنهم يسألون الله أن يزيدها موتة وحياة • والملاحظ أنهم ذكروا الموت قبل الحياة وجمعوا الموتة الاولى مع الموتة الثانية ، لانهما حالة واحدة أو متشابهة من حالات الانسان الوجودية •

ومن ثم يظل الانسان منذ أن يخلقه الله كادحا الى ربه عبر هذه المراحل الوجودية الاربعة خلال الزمان حتى يلاقى ربه « ثم اليه ترجعون» وهذا يفسر لنا قول الله عز وجل (يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه ــ آية ٦ سورة الانشقاق) •

ان السؤال الذى قد يرد على ذهن البشر هو : كيف كنا موجودين ونحن الان لا نعرف شيئا عن هذا الوجود الاولى ولا نتذكر شيئا عنه ؟

والرد على ذلك بسيط وهو أن المعرفة والتذكر هما دليلا على الوجود ولكن عدمهما ليسا دليلا على نفى الوجود فالانسان ينام ولا يدرى ولا يعرف ولا يتذكر بعد يقظته ماذا حدث له أو بجانبه ومع ذلك فهو

موجود وهو أيضا يعـلم أنه كان جنينا فى رحم الام وكان طفـلا رضيعا ولا يذكر شيئا عن هاتين المرحلتين من وجوده ولكنه على يقين من أنه كان موجودا بمقتضى ملاحظة غيره بعد ذلك من الاجنة والاطفال •

وفى الاسلام لا يفرق المسلم بين خير نجده به الله عز وجل وبين خير يعلمه من الواقع المشاهد الا أن هذا مصدره غيب وهـذا مصـدره عالم الشهادة بل ان بقية المؤمن بخير القرآن أعلى من بقيته من الخير المشاهد المحسوس وقد أخبرنا الله عز وجل اننا كنا موجودين على هيئة موت قبـل احيائنا فى أكثر من موضع كما مر بنا •

٢ — أثر عقيدةالا يمان باليوم الاخر فى الحياة الانسانية :

المجتمع الذى يؤمن أكثر أفراده باليوم الاخر يختلف اختلافا جذريا عن ذلك المجتمع الذى لا يؤمن أكثر أفـراده باليـوم الاخر • وذلك لان لعقيدة اليوم الاخر على حياة الفرد والجماعة والمجتمع أثارا خطيرة نوجز أهمها فيما يلى :

١ — الاثر الفكرى أو الايديولوجى :

لا يخفى على أحد أهمية العقيدة فى حيـاة الناس ، فالعقيـدة هى مجموعة مبادىء وتصورات وأفكار أو نظريات يعتقد الانسـان بصحتها ويقتنع بأنها حق والهدف منها تقـديم تفسـير للكون والحياة ولوجـود الانسان ، وذلك كله ضرورى للانسان حيث بدون العقيـدة يستحيل على الفرد أن يتكيف مع الحياة وأن يتقبل وجوده ويعمل على استمرار هـذا الوجود وحيث يؤدى الفراغ العقيدى عند الفرد الى الاضطراب العقـلى والنفسى وقد يؤدى به أحيانا الى الجنون وأحيانا أخرى الى الانتحـار ، لانه لا مناص أمام الانسـان — لكى يعيش — أن يكون مقتنعا بجـدوى

الحياة وأهمية وجوده وذلك لا يكون الا من خلال عقيدة تفسر له وجوده وتبرره وتحدد له الغاية اللائقة به كالانسان والرسالة التى وجد ليؤديها. وتعجز العقائد المادية التى تقول أن الانسان يولد ويموت ولا وجود له بعد ذلك ، نقول تعجز هذه العقائد عجزا مطلقا عن تفسير مغزى الحياة الانسانية وجدواها ، كما تفشل فى ايجاد معنى للوجود البشرى وفى تحديد هدف أو غاية تليق بالانسان وترضى نفسه وتشبع آماله وطموحاته التى تلح عليه فى ضرورة الارتفاع عن الوجود المماثل لوجود الحيوان •

فالحياة الانسانية فصل ثان من مجموعة فصول يفسر السابق منها اللاحق فاذا فصلنا الحياة الدنيا عن سابقها وعن لاحقها من المراحل الوجودية الاخرى أصبحت بلا معنى وبلا مغزى ومهما حاول المفكرون فى ظل هذه العقيدة فانهم يعجزون عن ايجاد المبرر والمعلل الذى يرضى العقل وتطمئن اليه النفس للوجود البشرى • ان نزع الحياة الاخرة من الوجود البشرى يجعل هذا الوجود كوجود الحيوان سواء بسواء •

بينما نجد أن حياة الفرد فى ظل الايمان باليوم الاخر مفهومة المقدمات معلومة النتائج ليس أمام الانسان فى هذا الوجود ألغاز أو أحاجى ، حيث تصبح المتناقضات مقبولة للعقل فتعلل عقيدة اليوم الاخر للانسان وجود الظلم والفقر والخوف والالم والمجاعات فى هذه الحياة الدنيا بجانب وجود العدل والغنى والامن والنعيم فيها • ان الظالم اذا مات دون عقاب فعقابه فى الاخرة ، والمظلوم اذا مات دون أن يأخذ حقه فسيأخذ حقه فى الاخرة ومن فاته شىء هنا سيعوضه الله عنه هناك •

أما عقيدة الكفر باليوم الاخر فانها تضع أمام الانسان آلاف الاسئلة التى يعجز الماديون عن تقديم الاجابة عليها •

٢ ــ الاثر النفسى :

فى ظل الايمان باليوم الاخر يعيش الفرد آمنا مطمئنا متمتعا بالسكينة والرضا وكل هذه المشاعر هى أساس السعادة الانسانية وذلك لان المؤمن بالله واليوم الاخر يثق فى عدالة الله ويطمئن الى رحمته وكرمه . فهو ينظر الى الحياة الدنيا كدار ابتلاء وكوجود مؤقت وليس كوجود نهائى له .

ومن ثم فهو يأمل فيما هو أعظم منها ، فتعظم أحلامه وتتخطى كل ما فى الحياة الدنيا من عرض زائل ، فهو ذو همة عالية وآمال طموحة فى حياة خالدة وملك كبير ونعيم مقيم . هذه الحالة النفسية التى يحيا فى ظلها المؤمن تجعله أقدر على تحمل المصائب والابتلاءات بالضراء ، فيصبر حتى يجتاز المحن كما تجعله حسن التصرف والاختيار ازاء النعم أو الابتلاء بالسراء فيشكر ويستخدم النعم فيما يعود عليه وعلى غيره بالخير . فهو سعيد راضى فى كل الحالين : حال السراء وحال الضراء ، وفى ذلك قال رسول الله ﷺ (عجبا لامر المؤمن أن أمره كله خير ، ان أصابته سراء شكر فكان ذلك خيرا له وان أصابته ضراء صبر فكان ذلك خيرا له ، وليس ذلك لاحد الا للمؤمن) .

أما الفرد الذى لا يؤمن باليوم الاخر فان حالته النفسية خاضعة للضيق حيث يعيش وكأنه فى قفص ضيق ، ليس قفصا مكانيا ولكنه قفص زمانى ، حيث أن الله عز وجل خلق الانسان وكيف نفسه وخصائصها وأحوالها لدار الخلود . حتى أن النفس السوية لا تقبل أقل من دار الخلود كآمال وأحلام تصبوا اليها وذلك بمقتضى الخلقة والجبلة والفطرة التى فطر الله الناس عليها. فاذا عاش الفرد وهو يعتقد أن وجوده ليس سوى هذه السنوات القليلة المعدودة ، وأن آماله وطموحاته تستوجب زمانا لا متناهيا ، وأن رغبته الفطرية فى الاستمرار فى الوجود لا تتوقف عند حد

بل هى تطالبه وتلح عليه بوجود بلا نهاية وبحياة أبدية ، عند ذلك يشعر بشعور دفين يلح عليه بالضيق والتبرم والقلق والاضطراب ، ويزداد هذا الشعور كلما تقدم به العمر وكلما بدأ يقترب به من نهاية الشباب وبداية الشيخوخة ثم كلما بدأ يقترب من النهاية التى يعتقد أنها نهاية وجوده ، بينما يعتقد المؤمن أنها نهاية حياته الاولى فقط وأنه سيعقب ذلك الوجود وجوده الابدى الذى تطمع اليه نفسه وكل نفس بشرية من هنا ازدادت نسبة الامراض العقلية والعصبية والنفسية فى مجتمعات الحضارة الغربية التى اعتنق أفرادها المادية وكفروا باليوم الآخر ، حتى أنهم ليسمون القلق مرض العصر . وكذلك انتشرت حالات الاكتئاب النفسى الذى كثيرا ما يؤدى بأصحابه الى الانتحار . وزادت نسبة الانتحار لدرجة لم نعهدها بين البشرية من قبل .

وما كل ذلك الا بسبب كفرهم باليوم الاخر وحبسهم أنفسهم فى قفص زمانى ضيق هو الحياة الدنيا ، أو على الاقل نقول أن هذا هو السبب الرئيسى لمعظم الامراض النفسية السائدة فى هذه المجتمعات .

ان حصر الوجود الانسانى فى الحيا ةالدنيا حصر لها فى مجال ضيق وعن هذه الحقيقة عبر ربعى ابن عامر حين سأله كسرى فارس قبل موقعة القادسية قائلا له لماذا جئتم الينا غازين أيها العرب ؟ قال ربعى بن عامر (الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ومن ضيق الدنيا الى سعة الدنيا والاخرة ومن جور الاديان الى عدل الاسلام) وذلك أن الفرد حينما يؤمن باليوم الاخر فهو يخرج من ضيق الدنيا الى سعة الدنيا والاخرة .

٣ ــ الاثر الخلقى :

يختلف المجتمع الفاضل عن المجتمع غير الفاضل فى أن الاول يتعامل

أفراده من خلال القيم الخلقية الفاضلة وأساسها جميعا الحـــق والعـــدل والخير • ومن ثم يتحلى أفـــراده بالفضـــائل الخلقية كالصـــدق والكرم والشجاعة والمروءة والاحسان والعفة والامانة بينما المجتمع غير الفاضل يتعامل أفراده من خلال قيم أخرى هى المنفعة والحميـــة للقبلية والجنس واللون والطبقة وغير ذلك •

وترتبط القيم الخلقية ارتباطا وثيقا بالايمان باليوم الاخر حتى يمكن القول أنه يصعب بل قد يستحيل قيام حياة خلقية فاضلة فى مجتمع لا يؤمن أكثر أفراده باليوم الاخر •

وعلة ذلك أن فى النفس الانسانية وقيبا ذاتيا يسميه القرآن النفس اللوامة ويسميه البعض بالضمير • وهـــذا الوازع الذاتى هـــو الدافـــع والاساس الاول للقيم والفضائل الخلقية ويرتكز هذا الوازع على الايمان باليوم الاخر كيوم يحاسب الله عز وجل السميع البصير والرقيب على كل فرد على أعماله ان خيرا فخير وان شرا فشر •

ان نظرة المؤمن للحياة الدنيا وطموحه فى الملك الابدى فىالاخرة يجعله أكثر جرأة وقدرة على الاســـتهانة بالاخطار فيكون بذلك شـــجاعا مضحيا بحياته فى سبيل الله •

الفهـــــرس

الموضوع	صفحة

الموضوع	صفحة

رقم الايداع

١٩٨٣ ــ ٤٨٥٠

طبــع بمطابع جــريدة السفير
٤ شارع الصحافة ـ اسكندرية